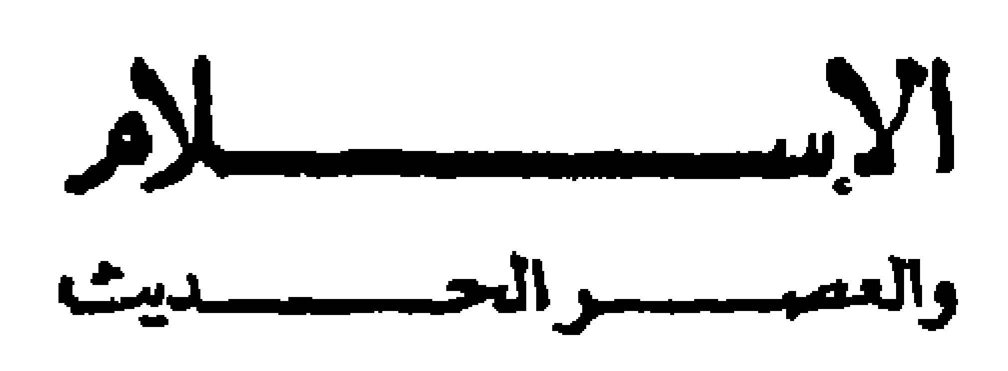


الإسلام
والعصر الحديث

وحيد الدين خان

المختار الإسلامي


الإسلام
والعصر الحديث

وحيد الدين خان

الإسلام
والعصر الحديث

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
٢٨ شارع شريف ت ٣٩١٣١٩٤
ص . ب ١٧٠٧ ـ القاهرة

مجموعة مقالات

ترجمة : ظفر الاسلام خان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٧٦ م

الطبعة الثانية : ١٩٧٨ م


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ترجمت محتويات هـذا الكتاب للنشر فى صـورة كتيبات ، ولكن ، لأسباب خارجة عن الارادة ، ظهر الـكتاب على هيئته الحالية . وقد روجعت مواد الكتاب وأضيف اليه ما سقط منه فى طبعته الأولى ، وخصوصا موضوع ((الايمان والحركة الايمانية)) الذى ظهر مبتورا فى الطبعة الأولى بسبب حذف الرقيب اجزاء هامة منه ، كما اضيف الى الطبعـة الجـديدة ((تحدى العصر الحديث)) الذى يضع التحديات الفكرية التى نواجهها نحن معشر المسلمين فى اطارها الصحيح ويثير قضايا متعددة لاتزال فى حاجة الى الاستجابة لها وفق مفاهيم العصر .

المترجـم

تحدى العصر الحديث

ان الاسلام يواجه تحديا فى العصر الحديث . ويتلخص هـذا التحدى فى ادعاء العصر الحديث بأن الاسلام قد فقد مبررات بقائه ، ليس من الناحية العملية وحدها ، بل ان النهضة العلمية أيضا قد أبطلت أسس الاسلام .. ولذلك يدعى المتحدثون باسم العصر الحديث بأن الاسلام يتمتع الآن بقيمة تقليدية وتاريخية بدلا من ان يتمتع بقيمة حقيقية وعملية .

ان التحديات ــ العلمية أو الفكرية ــ التى كان الاسـلام يواجهها قبل القرن العشرين كانت كلها تتعلق بمجال التاريخ . فكانت القوى المعادية للاسلام تلجأ الى تحريف حقائق التاريخ الاسلامى والسيرة النبوية لتؤكد أن الاسلام يقوم بدون أساس . وفى ذلك الوقت انبرى علماء من أمثال شبلى النعمانى وقدموا صورة تاريخية واضحة للاسلام .

وقد تغير مجال التحدى فى القرن العشرين . ان التحـدى الذى يواجهه الاسلام الآن ليس فى مجال التاريخ بل هو فى مجال الفكر والفلسفة . (وعلى سبيل المثال : فقد كان أعداء الاسلام يعمدون الى تشويه سيرة الرسول صلى الله عليـه وسلم ــ فى الماضى ــ أما اليوم فيدعون إنه لا أساس للوحى السماوى) .

ومما زاد من خطورة هـذا التحدى أن الفكر الحديث يمثل الحضارة المادية الحديثة التى سـادت فكر العالم اجمـع . ان مجموعة من أذكى العقول المفكرة قد أعدت مكتبة ضخمة لتوطيد الفكر الحديث . وكانت النتيجة أن تسربت آثار الفكر الحديث الى جميع فروع العلوم الحديثة ، فلا يدرس المرء علما من علومها الا وهو يتشرب مبادىء الفكر الحديث . وقد نشأ هذا الوضـع لأول مرة فى العصر الحديث ، وقد تضاعفت خطورته الآن بسبب تطبيق هذه الأفكار على العلوم الحديثـة . وكانت النتيجـة أن المؤمنين بالله والدين ــ ناهيك عن الملحدين ــ قد وضعوا الدين فى

خائنة المعتقدات فى عقولهم ، وهـم لا يدرون كيف يمكنهم تبرير عقائدهم علميا وعقليا ، وهم ـ بالرغم من ايمانهم ـ يعانون مـن شكوك غاية فى الخطورة . ومنهم جماعة اخـذت تؤلف تفسـيرا جديدا للدين لتطبيقه على مقتضيات الفكر الحديث .

وعلماء الغرب ، الذين تطلق عليهم تسمية « المستشرقين » ، قـد تغير أمرهم تمـاما . ان الاسـتشراق الجـديد يختلف عن الاستشراق القديم . ان الاستشراق القـديم كان يمارس مبـدأ « الخدعة المقدسة » ضد الديانة المعادية ، لحماية المسيحية . ولذلك كان قدامى المستشرقين يشوهون سيرة النبى للتشكيك فى تعاليمه . وقد وصف محمد إسد اسلوب المستشرقين القـدامى بـ « التحريف المتعمد » .

ولكن الاستشراق الجديد يقف على ارضية مختلفة ، وهى ان الفكر العلمى الحديث يفسر كل الأشـياء والظواهر تفسـيرا جديدا فى ضوء الحقائق والمقاييس الجـديدة ، ولذلك لابد من تفسير علمى لظاهرة الأديان . ومقولة جوليان هكسلى التاليـة تعتبر خلاصة التفسير الجديد لظاهرة الأديان : ان الدين نتاج التفاعل بين الانسان وبيئته » .

ولذلك حين يدعى أحد المستشرقين (أن تعاليـم الاسـلام مقتبسة من المسيحية) فهو لا يعبر عن الحقد الدينى القـديم بل هو يحاول أن يطبق الفكر الحديث على الاسلام . وبما أنه يعتقد أن منبع الدين ليس فى السماء ، فهو يبحث عن جذوره فى تاريخ الأرض . ولذلك ، يقول هؤلاء الذين يزعمون إن الاسلام مقتبس من المسيحية : ان المسيحية خرجت من بطن اليهودية ، وان اليهودية نتاج للأديان السابقة لظهورها .

وفى هـذه الأحوال لابد من اثبات حقية الاسـلام بأسلوب جديد . ان الأسلوب القـديم ، ولو عرض بكلمات جـديدة ، لن يجدى نفعا فى العصر الحديث . وهـذا العمل ليس مطلوبا للرد على العقول المعادية فقط ، بل ان حاجة المسلمين اليه اشـد ،

لانهم بالرغم من ايمانهم بالاسلام ، مبهورون بأفكار العصر الحديث .. ومعتقداتهم لن تترجم الى يقين وأفعال مالم يثبت لهم ، على مستوى فكر العصر الحديث ، أن الاسلام هو الحق الكامل اليوم تماما كما كان فى الماضى .

ولاشك فى أن عديدا من علمائنا قد حاولوا الرد على التحدى العلمى الحديث . ولكننى أجد نفسى مضطرا، مع تقدير خدماتهم ، لأن أقول ان جهودهم وقعت فى واحد من خطأين :

١ ـ الخطأ الأول هو ما يمكن أن نسميه بالتبرير أو التطبيق .. ومن أمثلة ذلك أن مبدأ تعدد الزوجات شاق جدا على الفكر الحديث ، ولذلك يعتبر أصحاب هذه المدرسة زيجات النبى عملا غير حضارى . وقد كتب أميرعلى ، وهو يتحدث عن تعدد زوجات النبى : « لماذا تزوج موسى بأكثر من واحدة ، ولماذا احتفظ داود بزوجات كثيرة ؟ ان الرد بسيط ، وهو أن لكل عصر معياره الخاص به . ولا يجوز لنا أن نحكم على الماضى بمعيار الحاضر » (١) .

ان هذا المنطق التبريرى يضع الدين فى المتحف . فالذى يعنيه هذا المنطق هو أن نضع الدين فى احدى دواليب التطور الاجتماعى ويشاهده المهتمون بالتاريخ من وقت الى آخر . ان هذا المنطق يعطى للدين مكانة فى الماضى وليس فى الحاضر .

ومن هؤلاء التبريريين من يقول لنا : ان أفكار الغرب ونظرياته ليست باطلة كلية ، بل هناك حقائق امتزجت بالباطل . ولذلك ينبغى أن نتبنى الأفكار الصحيحة عملا بالمبدأ القائل « خذ ما صفا ودع ما كدر » .

اذننا حين ندرس هذا التحليل وادلتـه نتأكد من أنه عنوان جديد للتطبيق بين الاسلام والغرب . ولذلك ، فان الأفكار التى

Amir Ali, Spirit of Islam, London, 1955, P. 240.

يعتبرها هؤلاء باطلة وغير اسلامية هى ذات الأفكار التى تتعرض للنقد فى الغرب ، أما الأفكار التى لم ينقدها علماء الغرب بعد ، فهى أفكار صحيحة واسلامية فى رأى هؤلاء التطبيقيين . وعلى سبيل المثال يرى هؤلاء الناس أن نظرية الارتقاء حقيقة اسلامية تماما كما هى حقيقة علمية فى نظر الغرب . انه ينبغى أن توجد نصوص فى القرآن والسنة تؤيد الارتقاء حتى تؤمن به . ولـكن الحقيقة هى أن هؤلاء فشلوا حتى الآن فى الاتيـان بآيةأو حديث يؤيد الارتقـاء . بل ، على العكس مـن هـذا كله ، فان نظـرية الارتقاء غريبة تماما على بنيان الفكر الاسـلامى ولذلك يضـطر المؤمنون بالارتقاء لأن يأتوا بتفسـير جديد للاسـلام يلائم مبادىء الارتقاء وعقائده ، فاضطروا الى تفصيل ثوب الاسلام مرة أخرى بطريقة جذرية .

وعلى سبيل المثال ، فان نظرية الارتقاء تقتضى تطور البشرية المستمر نحو الأفضل وأن يحوز الانسان فى النهاية على أفضل مكانة تبوأها فى تاريخه . وهذا يقتضى أن تقع الأحوال المكروهة فى الماضى وليس فى المستقبل ، ولذلك يحبذ هذا الفكر الجنة فى نهاية الارتقاء البشرى ولكنه لا يجد تفسيرا للجحيم . وتحل هذه المعضلة قال هذا الفكر أن الجحيم ليس مكانا للعقوبة ، بل هـو مكان للتربية . وقد كتب أحد محاميى هذه المدرسة التطبيقية يقول : « ان الحياة تمضى قدما ، بصفة دائمة ، تكافح العوائق التى تعترضـها . والذين جرفتهـم عوائق الذنوب الدنيوية فلم يتقدموا سيواجهون أحوال الجحيم العويصة حتى يستمر نضالهم التطورى . ان هذا النضال التطورى الصعب يسمى بالجحيم ».

ان هـذا الأسلوب للتطبيق بين الاسـلام وغير الاسـلام هو الأسلوب الذى تنتهجه الحضـارات المقهورة ازاء الحضـارات القاهرة . ولكن فكرا ما يظهر على العالم بهذه الصورة لن يصبح البنيان الفكرى لحضارة ما ، بل سيبقى على قيد الحياة طفيليا . وان كان من أحد يظن أنه يستطيع أن يغير الجو الفكرى العالمى بمثل هذه المحاولات التطبيقية أو أنه سيعيد الناس الى طريق الصواب فهو واهم وحالم .. ما فى ذلك من شك .

ان الفكر الثوري هو الذي يغير الأفكار وليس الفكر التطبيقي التلفيقي .

٢ ـ والمثال الآنف الذكر للذين حصلوا على قسط من المعارف الحديثة . وقد اتجه هؤلاء ، في مواجهة التحدي الحديث الى التطبيق واختلاق المبررات والأعذار .

ويؤسفني أن أقول ان الليبراليين المسلمين المعاصرين ليسوا هم الذين سقطوا في هذه الهاوية التطبيقية ، بل ان أناسا مثل محمد اقبال قد انحرفوا الى هذا التفكير في بعض الأحايين . ومحمد اقبال ـ الشاعر الثائر الذي لا يقبل الحلول الوسط في شعره ـ حين يجلس لوضع التفسير الفلسفي للدين نجده يتجه اتجاه التطبيق . ومن أمثله ذلك قوله :

« ان الجنة والجحيم حالتان وليستا بموقعين »

(Heaven and Hell are states, not localities).

ان هذا القول يعطي للآخرة تصورا يلائم بنيان الفلسفة الحديثة . وهناك أمثلة عديدة لهذا الاتجاه التطبيقي في خطب محمد اقبال (١) .

اما المجموعة الثانية فهي مجموعة علماء الدين . ان عددا من علمائنا تنبهوا الى واجباتهم . ولكن ، اذا كانت المجموعة الأولى تعاني من أخطاء التبرير والتطبيق ، فالمجموعة الثانية تعاني من المحافظة التقليدية للماضي . والحقيقة أن هؤلاء لم يفقهوا ، بعد ، جوهر التحدي الحديث ، ولذلك اكتفوا بترديد كلمات قديمة بأساليب جديدة ظانين أنهم قد ردوا على التحدي الحديث .

ويمكن تقسيم المجموعة الثانية الى نوعين :

النوع الأول من العلماء يجهل المعلومات الجديدة ولا يدري

---

(١) نشرت هذه الخطب في كتاب بعنوان « تجديد الفكر الاسلامي » ـ المترجم

شيئا عن وسائل العلم الحديثة . وهؤلاء لم يدرسوا سوى الكتب القديمة ، وهم بالتالي لا يعرفون الا ردود الأسئلة التي ثارت في الأزمنة الغابرة . وبما أن هؤلاء قد ولدوا في العصر الحديث فهم يسمعون بعض القضايا الحديثة ، ويصرون ، من باب اظهار الحق ، على الادلاء بآرائهم حول هذه القضايا . وهم يبحثون عن ردود القضايا الحديثة في الكتب القديمة التي درسوها في المدارس الدينية . وكانت النتيجة أن أصبح مثلهم كالطالب الذي يبحث في المعاجم القديمة عن معاني كلمات مستحدثة .

وكنموذج لهذه الحالة ، اشير الى مقال نشره كاتب عربي معروف بعنوان : « الشمس جارية والأرض ثابتة » . ولنقرأ القضية ورأيه حولها بكلماته نفسها :

« لقد شاع بين كثير من الكتاب والمؤلفين والمدرسين في هذا العصر أن الأرض تدور والشمس ثابتة . وراج هذا على كثير من الناس وكثر السؤال عنه ، فرأيت أن من الواجب ان أكتب في هذا كلمة موجزة ترشد القارىء الى إدلة بطلان هذا القول ومعرفة الحق في هذه المسألة ، فأقول : قد دل القرآن الكريم والأحاديث النبوية واجماع علماء الاسلام الواقع الشاهد على أن الشمس جارية في فلكها كما سخرها الله سبحانه وتعالى وأن الأرض ثابتة قارة قد بسطها الله لعباده وجعلها لهم فراشا ومهدا وأرساها بالجبال لئلا تميد بهم » .

ثم يقول ، بعد الاستدلال بعديد من نصوص القرآن والحديث والتفاسير والمعاجم :

« فمن زعم خلاف ذلك ، وقال ان الشمس ثابتة لا جارية فقد كذب الله وكذب كتابه .. وكل من قال هذا القول فقد قال كفرا وضلالا لأنه تكذيب لله وتكذيب للقرآن وتكذيب للرسول .. فهو كافر ضال مضل يستتاب فان تاب ، والا قتل كافرا

مرتدا ويكون ماله فيئا لبيت مال المسلمين كما نص على مثل هذا أهل العلم والايمان فى باب حكم المرتد .. واما من قال أن الأرض تدور والشمس جارية فقوله أسهل من قول من قال بثبوت الشمس ، ولكنه فى نفس الامر خطأ ظاهر مخالف للآيات المتقدمات وللمحسوس والواقع » (١) .

لا مجال هنا لمناقشة الأدلة التى ساقها هذا الكاتب ، ولكن لابد من القول أن الآيات والأحاديث التى نقلها الكاتب لا تكفى لاثبات وجهة نظره ، وان كانت أقوال بعض القدماء تؤيده ولكنها ليست أدلة لأنها لا تعدو أن تكون صدى لعلم الفلك السائد فى عصور أولئك القدماء ، ولا علاقة لأقوالهم بالقرآن والسنة . ومن المدهش جهل هذا الكاتب واعتقاده أن النظرية الحديثة تقول بأن الشمس ثابتة وأن الأرض تدور حولها ، فلعله يرى بوجوب « ثبات » واحدة من الاثنتين : الشمس أو الأرض !!

والنوع الآخر من العلماء لا يعانى من هذا الجمود . ولكن قصارى ما قام به هؤلاء العلماء هو ترديد عبارات قديمة ردا على التحدى الحديث ، مع بعض التغيير فى أسلوب الأداء . واقتصر عملهم على تقديم شىء قديم فى محتوى جديد .

ومن أمثلة ما قام به هـذا النوع من العلماء مقال « حكم العقل » لمؤلف معروف . ويدل عنوان المقال على انه قد الف لطمأنة العقول التى تفكر فى ضوء العقل وتحكم على إساسه . ولكن العقل الحديث لن يقرأ هذا المقال الا ليقول أن الأحرى بهذا المقال أن يحمل عنوان « حكم العقيدة » وليس « حكم العقل » . ان الكاتب قد الف معتقداته ثم وضع عليها عنوان العقل ، بينما كان العنوان يقتضى أن يثبت رايه بمقاييس العقل الخالصة الحديثة . وقد حاول المؤلف فى مقالة هذا أن يقيم الدليل العقلى على معقولية الاسلام . وخلاصة هذا الدليل العقلى

---

(١) جريدة « الرائد » ، لكناؤ ، ١ – ١٦ يناير ١٩٦٦ .

ان هناك نظريتين لتفسير الظواهر الكونية ، أحداهما هي نظرية الملحدين ، والأخرى هي التي جاء بها الرسل والأنبياء . والملحدون يعانون من خلافات فكرية شديدة فيما بينهم بينما فكر الرسل واحد بدون اختلاف . فكل الأنبياء الذين تجاوز عددهم الآلاف قالوا لشعوبهم انهم جاءوا بعلمهم من منبع معين أخبرهم بأسرار الكون . فهنا مكذبون مختلفون فيما بينهم ومدعون متفقون فى اقوالهم . ويعرض المؤلف أمر الطرفين على « محكمة العقل السليم » . ويحكم « العقل السليم » بأن دعوى المدعين سليمة لأن آلافا من العقلاء الصادقين النزهاء قد أيدوا هذه الدعوى باتفاق متواتر وايمان عميق ما لم تحظ به اية نظرية أخرى . ولاحظ « العقل السليم » أنه لا يمكن لعدد كبير من الناس ، ولدوا وعاشوا فى أزمنة وأمكنة مختلفة ، أن يتفقوا على شيء واحد الا اذا كان مصدر علمهم هو الوحى الالهى . وهكذا اثبت العقل حقية الدين والوحى !

ان كان لهذا الدليل من معنى فهو فى ضوء المنطق القديم الذى رفضه العقل الحديث ، ولا معنى له فى ضوء المنطق الحديث . كان المنطق القديم يقوم على المسلمات القياسية ، بينما يبحث المنطق الحديث عما اذا كانت المسلمة ــ المطلوب اقامة الدليل عليها ــ صحيحة أم لا .

ان الاستدلال السالف الذكر يقوم على اساسين ، وهما أن الرسل كانوا ذوى سيرة عالية نموذجية وانهم اتفقوا على مبادىء واحدة بالرغم من مجيئهم فى ازمنة وامكنة مختلفة متباعدة . ولكن المنطق الحديث يبادر قائلا : انك قد إهملت الأساس الثالث، أو الأساس الأول فى حقيقته ، وهو : كيف عرفت أن اناسا من هذا النوع قد ولدوا وعاشوا بالفعل ، فهم يمتون الى الماضى البعيد الذى لا يوجد له تاريخ موثوق به . انه يمكن قبول هذه المسلمة ، فى راى المنطق الحديث ، حين يثبت وجود هذه الشخصيات من خلال وثائق وسجلات موثوق بها كأن نتأكد من اسمائهم ولغاتهم وأماكن ميلادهم وأحوال سيرهم ، الخ ..

ان التاريخ المعروف لا يعطينا هذه المعلومات . فباستثناء

رسول واحد ، هو آخر الأنبياء ، لا يدلنا التاريخ على تواريخ ميلاد ووفاة اى نبى من الأنبياء السابقين ، ناهيك عن أن يعطينا تفاصيل كاملة عن حياة أى منهم . وتوجد ، الى جانب مصادر التاريخ ، الكتب الدينية التى تتحدث عن الرسل والأنبياء ، ولكن هذه الكتب تناقض نفسها ورواياتها لا تقدم تصورا واضحا واحدا حول اى شخصية من هذه الشخصيات . وهكذا ، فبالاعتماد على الكتب الدينية القديمة وحدها لا يمكن اثبات أن الرسل والأنبياء قد جاءوا برسالة واحدة فى كل العصور وأنهم كانوا يمتازون بسيرة ممتازة .. هذا فيما يتعلق بمعايير المنطق الحديث .

ولا يبقى بعد هذا سوى القرآن الموثوق به من الناحية التاريخية . والقرآن يذكر نحو رزينتين من الأنبياء بأسمائهم ويذكر آخرين بدون تسميتهم . والأنبياء المذكورون بالأسماء قد ظهروا فى منطقة جغرافية معينة ، أما الآخرون فظهروا فى مناطق أخرى ، على وجه القياس . وكانت رسالتهم وسيرتهم متطابقة فى ضوء القرآن ، بدون شك . ولكن القرآن ، فى نظر المنطق الحديث ، هو كتاب أحد الأطراف . ولذلك فان الاستدلال ببيان القرآن عن الأنبياء يعتبر دعوى تحتاج الى إدلة . ولهذا يقول المنطق الحديث أن بيان القرآن الاجمالى عن الأنبياء لا يقبل كحقيقة تاريخية ، وهو بالتالى لا يكفى دليلا لاصدار حكم عقلى بموجبه ، فحكم العقل هو الحكم الذى تمليه وتقبل به كل العقول البشرية . أما هذا الحكم فلا يقبل به الا الذين يؤمنون بالقرآن مسبقا ، اى ان هذا الاستدلال عقيدى وهو ليس باستدلال عقلى .

وهذا التوضيح لموقفنا من الفكر والمنطق الحديثين يبين لنا أن المطلوب منا ليس ما كنا نقوم به لمواجهة التحديات الفكرية الحديثة ، التى تتطلب معالجة جديدة لتؤثر فى أجيالنا الجديدة وفى الآخرين الذين تقع على عواتقنا مسئولية ابلاغ رسالة الحق اليهم .

ان الفتن الفكرية الحديثة التى قامت بيننا بتأثير الحضارة الغربية وأساليب مواجهتها تؤكد أيضا على فشلنا فى معالجتها

واحتوائها . فهناك مجموعة من العلماء والمشايخ الذين لايعرفون ردا على هذه الفتن الفكرية سوى اصدار الفتاوى والخطب والبيانات الفاضبة . وقد أصاب أحد المؤلفين حين وصف هذا الأسلوب لمواجهة التحديات العصرية بأنه أسلوب « المفارقة التاريخية » Anachronism . فمن الواضح أن هذه الفتن قد قامت نتيجة الحرية الفكرية السائدة ، ولا يمكن الرد عليها بدون أخذ الحرية الفكرية فى الاعتبار .

وهناك طائفة أخرى ، بدون شك ، حاولت معالجة الفتن الحديثة بالاستدلال والتحليل . ولكن جهودها تدل على عدم فهم الفتن الفكرية بعمق ، فاستخدمت هذه الجهود كلمات وعبارات تقليدية وظنت إنها قامت بالمطلوب ووفت القضايا حقها من الرد . وهناك قضايا حديثة ألف مؤلفونا مئات الألوف من الصفحات حولها ، وظلت دوائر اسلامية متعددة تعتقد أن الأمة قد قامت بتأدية « فرض الكفاية » تجاه هذه القضايا ، الا أن الحقيقة المرة هى أن هذه القضايا لاتزال فى حاجة الى الرد الصحيح .

واذكر قضية « القاديانية » على سبيل المثال . ان كثيرين يعتقدون أنهم قد ردوا على القاديانية ودحضوها حين يثبتون أنها تعنى نفى ختم النبوة . ولكن الرد العلمى لا يقتضى منا فقط ان نثبت أن القاديانية تعنى نفيا لأساس جوهرى من أسس العقيدة الاسلامية ، بل المطلوب هو أن نرد على الفكر الذى تقوم عليه القاديانية . انه لابد من تحليل هذا الفكر والرد عليه لاحقاق الحق وابطال الباطل .

ان نفى ختم النبوة ليس قضية القاديانية الأساسية ، بل هو نتيجة طبيعية لفكر القاديانية . ان القاديانية محاولة للرد على السؤال الذى يثار حول صلاحية النبوة والشريعة التى مرت عليها أربعة عشر قرنا . وردت القاديانية على هذا السؤال بأن آخر الأنبياء سيظهر مرة أخرى فى الأزمنة الحديثة ظهورا روحانيا ليهدى الناس فى الظروف المتغيرة .

وأنقل هنا بعض ما كتبه أحد أهم رجال الحركة القاديانية ، وهــو ظفر الله خان (١) . انه يقول فى الباب الثامن من كتــابه « الاسلام : معناه للانسان الحديث » : ان القرآن قد نزل فى زمن يختلف كثيرا عن العصر الحديث .

.... « ان جميع أبعاد الحياة الانسانية قد تغيرت ولذلك يشعر جميع أهل العلم والفكر بضرورة وحى جديد .. انه يمكن السؤال : ما الذى يقترحه القرآن لمعالجة هــذا الوضــع الذى يعانيه الانسان الآن والذى سيتضخم على مر الزمن . ان القرآن يعالج هذا الوضــع قائلا أن النبى لم يبعث لهذا الجيل فقط (الجمعة : ٣ ــ ٤) . وهذا يعنى ظهورا روحانيا ثانيا للنبى فى هذا العصر الحديث لمواصلة واستمرار الهداية القرآنية ولتفسير القيم طبقا للأوضاع التى يواجهها الانســان . وبظهــور غلام أحمــد القاديانى (١٨٣٦ ــ ١٩٠٨) قد تحقق هذا الوعد » (٢) .

انه من الواضح أن هذه عقيدة باطلة وعابثة . فآيتا سورة الجمعة اللتين يشير اليهما المؤلف لا تدلان على هذا الاســتدلال الا لأنهما ترجمتا الى الانجليزية بصورة خاطئة . ولكن المؤســف أننا لم نحلل بعد المشكل الفكرى الذى ساق المؤلف الى اختراع هذا الدليل ليقنع نفسه بصحة ما يؤمن به . وكانت النتيجة ، أنه بالرغم من تأليف « كتب حاسمة » حول القضية القاديانية ، لا يزال المشكل الفكرى الذى أنتج القاديانيــة بدون رد مفحــم وحاســم .

وهذا ما حدث بالنسبة « للبرويزية » (٣) ، فكثيرون من الناس يطمئنون الى أنهم قد أنهوا القضية البرويزية حين يثبتون أنها ليست الا محاولة لرفضه الحديث النبوى . ولكن الانسان الذى

---

(١) وزير خارجية باكستان سابقا ــ المترجم .

(٢) Zafrullah Khan, Islam : Its Meaning for Modern Man, P. 90.

(٣) « البرويزية » نسبة الى الكاتب الباكســتانى (غلام أحمــد برويز) Parvez صاحب مجلة (طلوع الاسلام) ، الذى ينكر الحديث ليتمكن من تفسير القرآن على هواه ــ المترجم .

يدرك الفكر العصرى يعرف أن رفضه الحديث نتيجة من نتائج الفكر الذى تقوم عليه البرويزية . فالبرويزية ليست مجرد رفض الحديث بل هى تقوم على النظرية التى تقول بأن السنة تفسير زمنى للدين وهى ليست بتفسير دائم للدين . وأصحاب هذه النظرية يفسرون السنة على هذا النحو ليتمكنوا من مطابقة الدين بالأفكار الحديثة عن التطور الاجتماعى . واستطيع أن أقول ، بمنتهى الاطمئنان ، أن احدا لم يرد بعد على قضية البرويزية الأساسية ، على المستوى العلمى . انه لا يمكن الرد على البرويزية الا على الصعيد الذى نبتت عليه . ولذلك ، لا تزال البرويزية ، بالرغم من « الردود الحاسمة والمحطمة » ، مستفحلة ولا يزال تحديها الفكرى قائما فى انتظار دحضها والرد عليها على مستوى الفكر الحديث .

ان هذه القضايا التى أثرتها تدل على أننا لم نستوعب ولم نفهم بعد التحدى الحديث على المستوى الفكرى ، ناهيك عن التقدم بالرد العلمى عليه . هذا ، بالرغم من أن هذا العمل يعتبر من الأولويات الأساسية التى لا نستطيع بدونها أن ندعى ، بالفخر والاعتزاز ، الانتماء الى العصر الحديث . ان عقيدتنا ونظامنا لن يجدا لهما مكانهما المناسب على خريطة العصر الحديث الا بقيامنا بهذا الواجب . وغنى عن البيان أن جهود الدعوة والاصلاح لن تفلح الا بعد أداء هذا الواجب .

ان البعض يرون حركات مختلفة تستمر بين المسلمين منذ عشرات السنين وتستقطب عددا من الناس ، وهم لذلك يعتقدون أن هذه الحركة أو تلك قائمة على أسس ناجحة وأنها تفى بمقتضيات العصر الحديث أو أنها قادرة على الوفاء بها . ولكن من باب الصدفة فقط أننا نجد معظم هذه الحركات فى القرن العشرين ، ولا يؤكد مجرد وجودها أنها تفى بمقتضيات القرن العشرين . ان كل المجتمعات تضم أناسا من مستويات وشواكل فكرية متعددة ولذلك تستقطب أية حركة تقوم فى أى عصر بعض الناس ، بينما هذا الاستقطاب فى ذاته لا يدل على أن مثل هذه الحركة تستجيب حقا لمقتضيات عصرها الذى توجد فيه .

الثورة الفكرية قبل الثورة التشريعية

يطالب بعض الغيورين بتطبيق الشريعة الاسلامية فورا بواسطة القوة ، دون مراعاة لاستعداد المجتمع لتقبلها . انه لا شــك فى اخلاص هؤلاء ولا فى صحة أهدافهم . ولكن الاســـلام حين يعلمنا الأحكام الشرعية ، يؤكد أيضا على الحكمة . فان التنفيذ التدريجى للأحكام مبدأ دائم فى الاسلام . وعلى سبيل المثال فانه لم ينزل فى أول أمر الدعوة الاسلامية أى حكم فى القرآن الكريم حول الخمر ، بل قيل فقط ان ضررها أكثر من نفعها ، ثم جاء الحكم بعدم التوجه الى الصلاة فى حالة السكر ، وفى النهاية نزل حكم التحريم الكامل القاطع .

لقد كانت هذه القضية تتلخص فى مراعاة طبيعة الفطرة البشرية. ولكن هناك اليوم عقبة أكبر فى وجه تنفيذ التعاليم الاسلامية وهذه العقبة هى الحضارة المادية الحديثة التى تسلحت بالطاقات العقلية والعملية وغزت العالم كله ، وأثرت فى عقول البشر بعمل متواصل منذ قرنين من الزمن . وفى مثل هذا الجو ، لا يمكن البدء بتنفيذ الأحكام الاسلامية عن طريق المحاكم ، والواجب أولا هو خلق جو فكرى ملائم .. انه يجب علينا أن ننهض بثورة فكرية حــديثة ولا يمكن للبرلمانات والمحاكم أن تعمـــل بفاعلية الا بعــد أن تكون القلوب مستعدة لذلك . ويبدو لى أن العمل الحقيقى المطلوب الآن هو أن ننشىء مركزا اسلاميا على مســتوى عظيم مزودا بوسائل الاعلام الحديثة من صحافة واذاعة وطباعة . وسيستخدم هذا المركز كل القوة الكامنة فى اللسان والقلم لنقش عظمة الاسلام فى قلوب الجيل الاسلامى الحاضر حتى ينتهى انبهاره بالحضـــارة الغربية ، وبدلا من تقليدها الاعمى يبدأ هذا الجيل بالنظر اليها على أنها هى المحتاجة لرسالة الاسلام . ومن ناحية أخرى سيبلغ المركز رسالة الاسلام وجوهره لشعوب العالم الأخرى بخلق جو عالمى تمهيدا لتنفيذ الأحكام الاسلامية . ويجب الا يكون هذا بلغة الدعاية وأسلوبها ، بل باللغة العلمية حسب مقتضيات العصر .

وليس من الضرورى ان تنهى هذا العمل خلال فترة محـددة مسبقا . ولكنه اذا بدأ العمل فى هذا الاتجاه ، فانه سيكون اللبنة الأولى نحو ثورة حقيقية . ولكن على العكس من هذا ، لو بدأ حاكم ما ينفذ الأحكام الاسلامية ابتداء من المرحلة الأولى وبدون خلق الجو المناسـب لذلك ، فانه سـيرحل عن هذا العـالم بعد انفاق كثير من الجهد والمال ، دون أن يكون قد أنشأ السلم الأســاسى الذى سيرتقيه جيلنا القادم . بل أخاف أن يظهـر رد الفعل فى الشعب عقب التحرر من قيادته السياسية فيرمى بالاسلام بعيدا ويسبق ايران وتركيا فى التحرر المزعوم .

ان الاقدام فى الجهة الصحيحة يعنى أن كل قدم يخطوه الانسان هو بمثابة تقـدم الى الهدف ، أما اذا كان الاقدام قهقريا ، فان الانسان يجد بعد بذل كثير من الجهد أنه عاد الى حيث كان قبل مسيرته ، ان لم يكن قد تجاوز مرحلته القديمة نفسها . ان العمل الفاشل لا يتسبب فقط فى ضياع القوة والوسائل ولكنه يصيب المرء بنفسية فاشلة ، تسلب منه الحماس الداخلى الذى كان قد حركه نحو العمل فى أول الأمر .

انها حقيقة أن تنفيذ الأحكام الاسلامية لن يتسنى فى الظروف الحالية عن طريق المحاكم والبرلمـانات ، بل يجب خلق مكتبة اسلامية رفيعة تخلق فى الجيل المسلم الجديد الاستعداد النفسى لتقبل الاسلام ، وفى الوقت نفسه تخلق جوا عاما لتنفيذ الأحكام الاسلامية عن طريق نشر رسالة الاسلام على المستوى العالمى حتى يصبح النظام الاسلامى والحكومة الاسـلامية من الأمور المفهومة للناس ، تماما كما فعل الذين نشروا الأفكار الاشـتراكية بقوة ونشاط فى العالم الراسـمالى وصـولا الى جعلها أفكـارا مقبولة ومفهومة . ان من الحتم أن نقوم بثورة فكرية قبل أن نقوم بثورة تشريعية . واذا حاولنا القيام بالثورة التشريعيـة دون الثورة الفكرية فان النتيجة لن تكون الا الفشل فى النهاية . لقد أنزل الله تعـالى آية ((**علم بالقـلم**)) قبـل تشريع الأحـكام . فكيف لنا أن نغير هذا الترتيب اليوم ، بأن ننفذ الأحكام قبـل تعليم الناس ، مع أن تعقيدات جديدة يجب اجتيازها قد نشأت بشـأن تنفيذ الأحكام الاسلامية اليوم .

ان قيام الحكومة الاسـلامية وتنفيذ احكام الشريعـة واقع اجتماعي . ومثل هذه الوقائع الاجتماعية لا تتحقق بمحض الارادة الفردية لشخص ما كما لا يمكن لارادة فردية أن تحول دونها .

وقد كانت هذه حقيقة هامة فى العصر القديم ، أما فى العصر الحاضر فقد تضاعفت أهميتها آلاف المرات لأن الحضارة الحديثة قد حطمت التقاليد القديمة واوجدت عالما جديدا للعلم والعمـل فوق أنقاض الدين .

وهـذا ليس كلاما قياسيا ، بل هناك أمثلة كثيرة له فى دنيا الحقائق . ففى الهند استولى الشيخ سيد أحمد الشهيد البريلوى (١٧٨٦ – ١٨٣١) على اقليم الحدود وأقام فيها حكومة شرعية . ولكن رؤساء القبائل الذين ساعدوه فى اقامة هذه الحكومة ثاروا وقضوا على حكومته خلال شهور. وليس السبب فيما حدث خطة شريرة لأعداء الاسلام ، كما نحب أن نعزو كل فشلنا ، بل السبب البسيط هو أن الشيخ سيد أحمد كان قد حول رجال القبائل الى مريديه وأتباعه ، ولكنه لم يفجر فيهم ثورة فكرية لتهيئتهم لقبول حكومة اسلامية على انقاض تقاليدهم القبلية .

والجماعة الاسلامية اقترفت هذا الخطأ فى باكستان . لقد ظنت أن العقبة فى وجه انشـاء النظام الاسلامى ليست الا حكومة المشير أيوب خان ، فاشتركت الجماعة فى الجبهة المتحدة واحدثت ضجة كبيرة لدرجة ان أيوب خان ترك الحكم سنة ١٩٦٩ . ولكن حين أجريت الانتخابات الجديدة لم يصوت الشعب الاسلامى بل صوت سكان أحد الجناحين للعلمانيين بينما اقترع سكان الجناح الآخر للاشتراكية . وهذه أيضا لم تكن مؤامرة من احـد الأفراد او الجماعات ، ولكن السبب فى ذلك أن الوقت لم يكن قد حان بعد لاستخراج النظام الاسلامى من صناديق الاقتراع .

ان المشـكلات التى تواجه اليوم تنفيذ النظام الاسـلامى تشبه المشكلات التى كانت تعترى تنفيذ الاشتراكية قبـل قرن واحد . ان التقاليد التى كان العالم القـديم يقوم عليها من دين واخلاق ، كانت تخالف الاشتراكية . ولنا درس هام فى الأسـلوب الذى استخدمته الحركة الاشتراكية لتجاوز هذه المشكلات .

ان الاشتراكية تهيمن اليوم على أجزاء كبيرة من العالم بشكل أو آخر . وليس السبب فى ذلك قرارا أصدرته حكومة ما ، بل ان الأحوال التى تم احداثها فى العالم بجهود دامت قرنا ونصف قرن هى التى فعلت ذلك .

لقد استخدم مصطلح « الاشتراكية » بمعناها الاقتصادى سنة ١٨٢٦ لأول مرة فى مجلة بريطانية هى « المجلة التعاونية Cooperative Magazine ثم جاء مفكرون وأدباء كتبوا مؤيدين للنظرية الاشتراكية وملأوا المكتبات بمؤلفاتهم . وفيما يلى بعض الأسماء اللامعة من هؤلاء :

شارلز هول	(١٧٤٥ — ١٨٢٥)
وليام غادون	(١٧٥٦ — ١٨٣٦)
سين سايمون	(١٧٦٠ — ١٨٢٥)
بابيوف	(١٧٦٤ — ١٧٩٧)
روبرت أوين	(١٧٧١ — ١٨٥٨)
شارلز فورييه	(١٧٧٢ — ١٨٣٧)
فيورباخ	(١٨٠٤ — ١٨٧٢)
شارلز كينفسليه	(١٨١٩ — ١٨٧٥)
وليام موريس	(١٨٣٤ — ١٨٩٦)
جون برنس	(١٨٥٨ — ١٩٤٣)
سيدنى وير	(١٨٥٨ — ١٩٤٧)
برناردشو	(١٨٥٦ — ١٩٥٠)
كارل ماركس	(١٨١٨ — ١٨٨٣)
فريدريك انجلز	(١٨٢٠ — ١٨٩٥)
تولستوى	(١٨٢٨ — ١٩١٠)
لينين	(١٨٧٠ — ١٩٢٤)
ستالين	(١٨٧٩ — ١٩٥٤)

ان هناك آلافا كتبوا لأجل نشر النظرية الاشتراكية فى مختلف اللغات بأسلوب علمى. وماركس وحده أمضى ثلاثين سنة يدرس فى المتحف البريطانى حتى ألف الجزء الأول من كتابه (الراسمالية). ثم ظهرت حركات عديدة أخرى من بطن هذا الفيضان الفكرى مثل : الاشتراكية البولشفكية ، الفابية ، الاشتراكية المسيحية ، الشيوعية ، السندكلية Guild Socialsm والجماعية Collectivism والاشتراكية الاتحادية العمالية Gnild Socialsm وغيرها .

ومن ناحية أخرى انتشرت فى العالم شبكة من الحركات العمالية والنقابات. وهذا العمل يستمر ، بكل قوة ، منذ قرن ونصف قرن. وبعد قيام الحكومة الاشتراكية فى روسيا أصبح نشر الأفكار الاشتراكية على مستوى حكومى منظم ، فتضاعف قدرها وزادت نوعياتها آلاف المرات. وكانت النتيجة إن الناس فى كل مكان فى العالم متأثرون اليوم ، بأسلوب أو آخر ، بالفلسفة الاشتراكية . وبخلق هذا الجو كان ممكنا اقامة حكومات اشتراكية على رقعة كبيرة من العالم بحيث أصبح العقل الانسانى المعاصر يقبلها كنظام سياسى واقتصادى شرعى .

والأمر لا يقف عند هذا الحد فان الزعماء الاشتراكيين حين تمكنوا من الحكم فى روسيا سنة ١٩١٧ لم يكتفوا بالخطب كزعمائنا بل بدأوا يكافحون لجعل دولتهم قوية باستغلال الوسائل المادية . وحين كان علماؤنا الدينيون يزعمون أن لغات الغرب لغات الملحدين الكفرة ، كان زعماء روسيا قد اكتشفوا أنها اللغات التى تكتنز العلوم والتكنولوجيا وانه يمكن لروسيا أن تنقلها الى لغتها فتتبوأ مكانتها على الخريطة .

قبل نصف قرن كان حكام تركيا يصلبون مواطنيهم لاجبارهم على لباس البرنيطة بينما كانت روسيا مشغولة بترجمة الكتب العلمية . لقد حدثت ثورتا روسيا وتركيا فى سنوات متقاربة. وقد عاش زعيم الثورة التركية كمال اتاتورك (١٨٨١ – ١٩٣٨) أكثر من لينين زعيم الثورة الروسية (١٨٧٠ – ١٩٢٤) بنحو خمس

عشرة سنة ولو كان أتاتورك قد وضع الأساس الصحيح للبناء مثلما فعل لينين ، لكانت تركيا اليوم واحدة من القوى الكبرى . ولكن بسبب خطأ الاتجاه ، نجد روسيا تطلق الصواريخ والسفن فى الفضاء بينما لا تزال تركيا مخزنا للبضائع الغربية .

ان روسيا الاشتراكية هى الدولة الوحيدة التى شعرت بأن أهم ضرورة فى هـــذا العصر هى ترجمة الكتب العلمية الى اللغة الوطنية .

وقد أنشأ لينين لجنة خاصة ســنة ١٩٢٢ باسم كومينوليت Cominolit . وكان واجب هذه اللجنة هو جمع الكتب العلمية من كل أنحاء العالم وترجمتها الى اللغة الروسية . وكان لينين يعتبر هذا العمل هاما ، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على هــذه اللجنة . وبسبب هذا الاهتمام الشخصى للينين أصبح يوجد فى روسيا اليوم أكبر مجموعة مترجمة للكتب العلمية . وهناك مجلة فى روسيا ، تصدر باسم Refravativyi Zhurnal وهى تلخص فى كل عدد منها مليون مقال علمى وتكنولوجى من مجلات تصــدر فى ١١٧ دولة . ولانجاز هذا العمل عينت الحكومة الروسية مائة ألف مترجم ويوجد فى معهد (الاتحاد للمعلومات العلمية والتكنولوجية) وحده ٢٥٠٠ مترجم الى جانب ٢٢ ألف مترجم آخرين يتعاونون مع المعهد غير متفرغين . والى هذه الجهود يعزى التقدم الواضح الذى أحرزه الروس فى الحقل العلمى .

وهم يشجعون فى روسيا على تعلم لغة أجنبية فى كل مرحلة من التعليم ويجب على تلميذ الابتدائية أن يتعلم لغة أجنبية حتى نهاية الدراسة . ويوجد فى روسيا اليوم كثيرون ذوو مقدرة عالية على الكتابة بلغتين أجنبيتين وعلى الترجمة منها واليها .

وبسبب الجهد الذى دام نصف قرن تمكنت روســيا من أن تصبح أول بلد فى التاريخ البشرى ارسلت قمرا صناعيا بدأ يطوف حول الأرض . وتتضح أهمية العلم الروسى من أن هناك ٢٥٠ مجلة

روسية علمية تترجم حرفيا فى الولايات المتحدة وتنفق الحكومة الأمريكية على ترجمتها ملايين الدولارات .

وقد تأثر العالم كله بالأفكار الاشتراكية بسبب توسع الروس الفكرى وبسبب تقدمهم المادى . وزعيمة العالم الراسمالى تسعى اليوم الى الوفاق مع روسيا .

وعلى العكس من هذا انظروا حال الزعماء المسلمين . لقد وقعت الثورة العسكرية فى مصر سنة ١٩٥٢ . والسياسة التى اتبعها زعماء الانقاب بعد ذلك ابعدتهم عن أوربا وأمريكا وقربتهم الى روسيا . وقد اتخذوا عديدا من الخطوات المتطرفة اعتمادا على المساعدة الروسية البديلة لأن مصر لم تكن قادرة على أن تقف على قدميها دون مساعدة الآخرين. وقد لعبت القيادة المصرية هذا القمار الاقتصادى والسياسى أملا فى الحصول على المساعدة الروسية البديلة للمساعدات الغربية . ولكن بالرغم من اللعب بمثل هذه اللعبة الخطيرة ، نجد بعد ست سنوات من الثورة أن القيادة المصرية كانت تفتقد الى مترجم مصرى ينقل كلام خروشوف حين قابله عبد الناصر فى ٢٩ ابريل ١٩٥٨ . واضطر الزعيم المصرى ان يعتمد على مترجم روسى خلال محادثته التى تعلق بها قدر العالم العربى كله . أما القادة الروس فلديهم مترجمون أكفاء لكل اللغات ولديهم مترجمون آخرون كثيرون لمرافقة الزوار الأجانب ومرافقة الشخصيات الروسية فى الخارج . وقد رأينا أول رائدة فضاء روسية فالنتينا تريشكوفا حين جاءت فى فبراير سنة ١٩٧٣ الى دلهى وتحدثت الى المواطنين المشتاقين عن انطباعاتها فى رحلتها الفضائية وكانت تتحدث باللغة الروسية ، كان حديثها ينقل الى اللغة الهندية فى نفس الوقت .

ان الدرس الذى ننتهى اليه هو أنه لا يمكن الوصول الى الهدف بدون خلق ثورة فكرية اسلامية توقظ العقول الاسلامية الهامدة الراقدة من ناحية ، وتخلق جوا عالميا من ناحية اخرى لتقبل فكرة حكومة اسلامية فى المجتمع الدولى . ولا يمكن انجاز هذا الهدف بالاعتماد على الآخرين بل يجب على المؤمنين به أن يبدأوا العمل فورا

فى الدائرة المتاحة لهم ساعين الى تقوية وتوســـيع تلك الدائرة باستمرار . والمحظور الأكبر أن نتعجل رؤية ثمار جهودنا قبـــل نضوج الموقف . ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أســوة حسنة ، فقد آثر ان يربى مجموعة آمنة ، بدلا من الاعلان عن قيام حكومة اسلامية منذ الوهلة الأولى ، لأن هناك تعقيدات فى كل الأمور ولا يمكن حلهـــا بالعمل المتحمس فقط ، بل بالتخطيط والعمـل المتواصل .

ان الدرس الذى نتعلمه من التاريخ هو أن المشاريع التى تقام اعتمادا على الآخرين لن تنجح . فلا شك فى إنها فكرة جميلة أن تتعاون عديد من الدول لانجاز مشروع ما ، ولكن مثل هذا العمل دائما يتحطم على صـــخور الواقع العملى . انه يجب أن نتذكر دائما ما قاله أحد المؤرخين : « ان التاريخ هو قبول الخيار الآخر .. الخيار المتاح » ولو تمكنا من فهم هذا السر لتمكنا من بناء شيء مفيد لأجيالنا القادمة .

واذا كنا نصر على أن نخلف وراءنا ذكريات الشهادة والتضحية وحدها ، مثلما فعل زعماؤنا فى الماضى ، فاننا لن نحتاج الا الى الحماس والروح الجياشة لكى نكون قادرين ، بعمل متحمس ،على ان نضيف جديدا لهذه الذكريات ، بسهولة . أما اذا كان هدفنا هو اعلاء كلمة الاسلام على الأرض فان ذلك لا يمكن أن يتحقق الا بالكفاح المتعقل والتخطيط البعيد المدى . ان الخطوات الخاطئة التى خطاها زعماؤنا فى الماضى لم تصبح خطوات ذات معنى ، واذا استمر زعماؤنا اليوم فى السير بخطوات خاطئة متجاهلين قانون الأسباب والعلل فان النتائج لن تكون أقل سوءا مما مضى مهما كان مقدار الاخلاص ومهما كان الحماس والاندفاع .

حوار مع المتغربين

ان العلم نوعان : النوع الأول ما سماه القرآن الكريم بالعلم الظاهر **((يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون))** (الروم : ٧) ، أما النوع الثانى فهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم (العلم الراسخ) **((هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب))** (آل عمران : ٧) .

لقد خلق الله هذا الكون بأن أوجد لكل شىء جوانب متعددة .

واذا كان أحدنا ينظر الى جانب واحد ، أو جوانب معينة فقط ، من شىء ما سوف يدلى ببيانه عن ذلك الشىء بكل ثقة فيما يقوله . ويمكن أن يكون بيانه معاكسا لحقيقة ذلك الشىء لو نظرنا اليه من كل الجوانب . فقبل عدة قرون لم تكن السفن تتخذ من حديد . وفى ذلك الزمن احتدم نقاش بين الذين قالوا بامكان بناء السفن من حديد وبين آخرين أنكروا ذلك . وقد خالف أحد السفن وقال : ان سفينة كهذه ستغرق فى البحر ، ثم جاء بقطعة من حديد ووضعها فى اناء مملوء بالماء فاذا بها تستقر فى قاع الاناء . وهكذا اقتنع الحداد بأنه قد أثبت بالتجربة أن سفينة متخذة من حديد ستغرق فى البحر . أما الآخرون الذين كانوا يؤيدون فكرة بناء السفن من حديد فقد أنكروا تجربة الحداد وجاءوا بطبق من حديد ووضعوه فى الاناء فاذا به يطفو فوق الماء بدلا من أن يستقر فى قاع الاناء !

ان واقعة سيدنا ابراهيم (٢١٦٠ ــ ١٩٨٥ ق.م) المذكورة فى القرآن الكريم نموذج واضح للعلمين الظاهر والراسخ . والمدينة التى بعث اليها ابراهيم عليه السلام وهى مدينة ــ أور ــ كانت

تعبد الكواكب . لقد كان سكان أور لا يرون من الكواكب سوى نورها وضياءها فظنوا أنها معبودات . وحين أراهم عليه السلام مظهرا آخر من الكواكب تبين لهم أن هناك جانبا آخر لجوانب حقيقة الكواكب ، وهو الأفول ((**فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما افل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدني ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما افلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون**)) (الأنعام : ٧٦ ـ ٧٨) اى ان تلك الكواكب تسطع وتضىء لبعض الوقت فحسب ثم تغرب وأنها ، بكلمة أخرى ، تابعة للنظام الكونى الذى يتبعه الانسان فى حياته . ان هذا الجانب الآخر الذى كشفه إبراهيم على قومه قد أثبت لهم أن هذه الكواكب تابعة وليست متبوعة ، وأنها عابدة وليست معبودة .

ولنا مثل آخر للعلمين الظاهر والراسخ فى حياة سيدنا ابراهيم . فلقد كان الملك نمرود يظن أنه قادر على حياة الناس ومماتهم لدرجة انه أمرهم بعبادته دون الله . ولكن سيدنا ابراهيم أبان له أن الذى يظن أنه قادر على حياة الناس غير قادر على حكم النظام الشمسي .. فهنا إنقلب الأمر وأصبحت المشاهدة الكونية الواسعة نفيا للمشاهدة المحدودة لبعض البشر .

وهذه هى الحالة التى نواجهها اليوم على نطاق واسع جدا . فنحن نسمع الدعاوى من جهات مختلفة بأن الحقائق العلمية التى اكتشفناها فى العصر الحديث قد غيرت كل خرائط الحياة القديمة وأنه يجب على الاسلام أن يعيد النظر فى معتقداته ليوائم الظروف الجديدة . ويضيف هؤلاء الذين يطالبون باعادة النظر فى الاسلام : ان الاسلام لن يبقى طويلا لو أخفقنا فى اعادة النظر فيه بل ستطحنه ظروف الزمن .

تبدو هذه النصيحة ذات وزن كبير فى ضوء العلم الظاهر . ولكن يتضح لنا عند دراسة القضية فى ضوء العلم الراسخ أن الحقيقة مغايرة تماما .

لقد وجدت ، من خلال تجاربى الشخصية ، أن الناس يقدمون فى هذا الصـدد نوعين من الأمثلة . والنوع الأول ما لا علاقـة له بالكشوف العلمية بل هو يتعلق بغلبة ورواج نظام ما وانتكاسة نظام آخر فى زمن ما ، كأن يقال : « ان الاسـلام يحـرم الربا ، فكيف يمكن اتباع الاسلام فى زمن يقوم إقتصاده على الربا ؟ » ان مثل هذه الأمثلة ليست موضوع هذا البحث ، لأن الربا ليست اكتشافا علميا أو اجتماعيا لهذا العصر ، بل هى مبدأ رائج منـذ القـدم ، ورواجها اليوم يعود الى غلبة النظام الراسمالى على العالم . وحيث ان الربا أقوى أساس للنظام الراسمالى وأكبر سند لتقدمه فقد سلطها النظام الرأسمالى على كل العالم لمصلحته . وهذا يعنى أن نظاما آخر غير راسمالى يستطيع أن يضع هيكلا اقتصاديا جديدا لا يقوم على الربا . وهذا ما حدث فى عهد هتلر (١٨٨٩ ـ ١٩٤٥) الذى حاول أن يجرى نظاما مصرفيا لا يقوم على الربا ، وكان هدفه القضاء على الرأسمالية اليهودية . وهكذا الغت البلاد الشيوعية (روسيا والصين) الربا ، لأن هذه الدول التى تتبع نظام الاقتصاد الحكومى لا تحتاج الى الربا . وهكـذا سيجرى الاسـلام نظامه الاقتصادى حين يغلب على الأنظمة الأخرى .

ان موضوع بحثنا هنا هو ذلك النوع من الأمثلة التى تقول أن العصر الحديث قد اكتشف حقائق كان الانسان القديم يجهلها ، وأن الحقائق الجديدة تصطدم مع الحقائق القديمة . وهكذا ، كما نبذنا نظام بطليموس القديم بعد إكتشـاف الحقائق الجديدة ، والا فان الاسلام لن يتمكن من مواءمة العصر والتمشى معه بدون إعادة النظر فى أفكاره .

لقد جربت ـ شخصيا ـ أمرا مدهشا فى هذا الصدد ، وهو أن الذين يطالبون باعادة النظر فى الاسـلام ، باسم الاكتشـافات العصرية ، يتحدثون حديثا وقورا ذا صبغة علمية حين يعبرون عن الجانب المبدئى والأيديولوجى من نظريتهم .. ولكنك حين تطالبهم بان يأتوك بدليل على ما يقولون ، فانك تكتشف أنهم ينظرون الى الأمر نظرة سطحية وأنهم لم يغوصوا بعد الى اعماق القضية التى يتناولونها ، بل انهم يلوكون كلمات للغير دون أن يفهموها .

ان الذى يجرى دراسة مقارنة بين علم النجوم القديم وعلم

الفلك الحديث ، أو بين علم الكيمياء القديم والكيمياء الحديثة : سيجد أن البون واسع وعظيم بين علمي الفلك والكيمياء الحديثين وبين نظيريهما القديمين ، وأن العلمين الجديدين واضحان ولديهما أدلة قاطعة . ولكن حين تطالب المتغربين المتحدثين باسم العلم الحديث بأن يأتوا بدليلهم العلمي الذى يحتم اعادة النظر فى المعتقدات الاسلامية ، ستجد أنهم يأتونك بأدلة غريبة وواهية تجعل الحوار والنقاش كله مضيعة للوقت . والسبب فى هذا أن المعلومات والأدلة القطعية التى توصل اليها الانسان فى مجالات الطبيعة والفلك لم يتوصل الى مثلها فى مجال العلوم الاجتماعية . لقد أراد بعض البشر أن يكملوا المجموعة حين أصروا على ترقيع الاكتشافات العلمية باكتشافات أخرى فى مجالات الاجتماع . والحقيقة أن الانسان لم يصل بعد الى شىء جديد أو نهائى أو قطعى فى المجالات الاجتماعية .

كيف تعوق السطحية هؤلاء دون فهم الحقائق ؟

لنفهم هذا من مثال .. لقد كنت أتحدث ذات مرة مع شخص مثقف ثقافة عالية ، وكان الحديث يدور حول الارتقاء الطبيعى . وقال لى ذلك الشخص :

لقد حاول بعض العلماء المسيحيين أن يثبتوا أن الارتقاء محض نظرية وليس حقيقة علمية ، لأن هذه النظرية لم تخضع للاثبات التجريبى والعلمى . ولكن محاولاتهم هذه دليل على جهلهم ..

واضاف يقول :

لقد قابلت فى أمريكا عالما أخبرنى أن الفارق الذى كانوا يتصورونه بين الواقع العلمى وبين النظرية فى بداية هذا القرن : لم يعد له وجود اليوم . وأصبح من المسلم به الآن أنه ليس من الضرورى لنظرية ما أن تكون قابلة للتجربة والعرض والاعادة حتى يعترف بها كحقيقة علمية . فلو وجدت حقائق وشواهد تساعد العلماء على استنباط نظرية ما فستكون تلك النظرية

حقيقة علمية . وطبقا لهذا المبدأ سلموا بأن الارتقاء نظرية علمية . فهناك حقائق كثيرة معروفة تؤكد على الاستنباط العلمى لحقيقة الارتقاء ووجوده ، بالرغم من عدم خضوعه للعرض والاعادة .

واجبت على هذا الشخص :

انني على علم بالأمر الذى أخبرك به العالم الامريكى، وقد قرأت عنه شيئا كثيرا . ولكن الشيء الوحيد الذى يثبته هذا المبدأ هو أن العلماء الجدد قد أنزلوا منهج الاستدلال من مكانته السابقة . وليس لنا أن نعترض على تصرفهم هذا . ولكن المبدأ الذى تثبت به جهل المؤمنين بالدين هو فى حقيقته سلاح فعال فى أيديهم . ان هذا التطور قد أعطى فى أيدى المؤمنين بالدين فرصة لاثبات العقائد الدينية طبقا لأساليب الاستدلال العلمية ، وهو الأمر الذى كان يبدو مستحيلا فى ضوء المعيار الاستدلالى القديم الذى كان يطالب بأن تكون النظرية العلمية قابلة للعرض والاعادة ، وبكلمة أخرى: أن يكون هناك رابط مباشر بين الاستدلال والشيء المستدل منه ، كالعلاقة بين زر الكهرباء ولمبته .. وقد اختفى هذا الشرط فى معيار الاستدلال الجديد . وهكذا أصبح استدلال أهل الدين بوقائع هذه الدنيا على وقائع العالم الآخر استدلالا علميا خالصا ، بينما لم يكن الأمر كذلك قبل نصف قرن من الزمان .

وقلت له :

ان هذا التطور ليؤكد ، بصورة مدهشة ، على ما قاله الله تعالى : **« والله غالب على أمره »** (يوسف ٢١) . فقد وضع علماء القرن التاسع عشر قوانين للاستدلال لم يكن بالامكان استخدامها لاثبات الحقائق الدينية ، ولكن الله تعالى فتح بعد ذلك أبواب اكتشافات وحقائق كونية أخرى جعلت العلماء يوسعون

دائرة المعايير الاستدلالية . وهذه المعايير الجديدة تثبت حقائق الدين اثباتا علميا . انها انتصار لأهل الدين، ولا يمكن اتخاذها ذريعة لاثبات جهلهم !

* * *

ان احد المسلمين « الليبراليين » يكتب فيقول :

« لا ينبغى اعتبار ما جاء فى القرآن حول ظواهر الطبيعة والحقائق العلمية مقدسا ، بل يجب فتح الباب للنقد . لقد تغيرت فكرة الكون والزمن الرائجة فى عصر كوبرنيكوس (١٤٧٣ – ١٥٤٣ م) ، ويجب على الاسلام أن يراعى هذه المتغيرات وأن ينهى التعارض الدينى مع العلم . وعلى سبيل المثال : لا ينبغى التأكيد على ولادة المسيح بدون أب ، كما انه لا وجود لأساس علمى للعقيدة الدينية القائلة بالسماوات السبعة » .

ان من الحقائق المعروفة أن القرآن ليس بكتاب للعلوم ، بل هو كتاب لهداية الانسان ، ولكنه فى الوقت نفسه يركز أدلته على الظواهر الطبيعية ، ويلمس موضوعات كثيرة هى من صميم مجالات العلوم الطبيعية . ولو درسنا هذه النقطة ، بامعان ، اتضح لنا أن موضوعات القرآن الكريم فى هذا الصدد تنقسم الى قسمين :

(أ) موضوعات إصدر العلم الحديث آراء قطعية بشأنها .

(ب) موضوعات لم يتمكن العلم الحديث من الادلاء بأى رأى قطعى بشأنها ، بعد .

وفيما يتعلق بموضوعات القسم الأول (ا) فلم يتعارض أى كشف علمى ، بعد ، مع ماورد فى القرآن الكريم . وعلى سبيل المثال حين تحدث القرآن الكريم عن الذرة قال : **ولا اصغر من ذلك ولا اكبر** (يونس : ٦١) ، اى إن القرآن يقرر ان هناك وجودا

اصغر من الذرة ، وهو أمر كان انسان القرن السادس الميلادى يجهله ، الا ان الكشوف العلمية الحديثة قد اثبتت صدق هذه الفكرة . وهكذا يقول القرآن عن مجىء الليل عقب النهار : (**يطلبه حثيثا ـ الأعراف : ٥٤**) ، وهو تصور كان مجهولا لدى الانسان القديم الذى لم يكن على علم بأن الكرة الأرضية مدورة وانها تدور محوريا . وقد أثبتت الاكتشافات الفلكية الجديدة صدق هذا التصور .. وهناك امثلة اخرى كثيرة فى القرآن لهذا النوع من الآيات ، وليس قصدنا هنا استقصاؤها .

* * *

والسؤال الآن عن موضوعات القرآن الكريم من النوع الثانى (ب) . وكلا المثالين المذكورين فى اقتباسنا من مسلم ليبرالى يتعلق بهذا النوع الثانى ، وعلى سبيل المثال نذكر قضية ميلاد سيدنا المسيح بدون أب . فانه مما لا شك فيه أن العلم الحياتى لم يكتشف ، بعد ، قانونا يثبت انه يمكن لامرأة أن تلد دون اتصال مباشر أو غير مباشر برجل ، ولكن مما لاشك فيه ، أيضا ، من جهة اخرى ، أن العلم لم يكتشف قانونا مضادا آخر يقول بعدم امكان الولادة بدون اتصال امرأة برجل . وكان يمكن لمبدأ القرن التاسع عشر القائل بوجوب التسلسل أن يقيم دليلا حول هذه القضية ، ولكن اكتشافنا لمبدأ عدم التيقن Principle of Indeterminacy قد انهى امكانية دليل كهذا .. ولذلك فان أقصى ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن الولادة بالأب والولادة بدون أب أمران من نوعية واحدة علميا . فليس لدينا أساس علمى ، بعد ، لرفض إحدهما وقبول الآخر . ثم ان ولادة المسيح عليه السلام بدون أب لاتعدو مجرد قضية نظرية حين نأخذ فى الاعتبار الحقيقة الازلية وهى أن الحياة البشرية الأولى فى هذا الكون قد وجدت بدون أب ، وحينذاك نتأكد من أن قضية ولادة المسيح بدون أب واقع ذو نظير مماثل فى الكون .

وقضية (السموات السبع) أيضا من هذه النوعية . فمن الوقائع المعروفة أن معلومات الانسان عن الكون جد محدودة

لدرجة أن نظرية الأعماق السـوداء Plack Holes تقول بأن الانسان لم يشـاهد سـوى ثلاثة فى المائة من الـكون المادى ، أما الأجزاء السبعة والتسـعون الباقيـة . فالانسـان غير قادر على مشاهدتها . والواضح أن السموات السبع تعنى سبع طبقـات سماوية . واذا كانت معرفة الانسان محدودة بثلاثة فى المائة مـن الكون ، وهذه الأجـزاء الثلاثة فى المائة تنحصر فى الأجـزاء المادية دون اجزاء الكون الأخرى غير المادية وغير المحسوسة ، فكيف تجوز المطالبة بتفيير آية السموات السبع أو بشرحها شرحا جديدا .. انه قول خال من الدليل من الناحية العلمية المحضة .

* * *

ويقول بعض المتغربين :

« ان القـانون حقيقـة متطورة ، بينما الشريعـة شئ جامد ، ولذلك لا يمكن أن تكون الشريعة قانونا لكل العصور » .

ويبدو هذا القول وقيعا فى الوهلة الأولى ، ولكن عند بحثه ، بعمق ، يتضـح أنه قول خال من الثقل العلمى فى ضـوء الأبحاث التى اجريت حتى الآن .

ان هناك قانونين فى الكون الذى نعيش فيـه : قانون طبيعى وآخر أخلاقى . والقانون الطبيعى ــ الموضوع الخاص للعلوم ــ هو قانون جامد باجماع كل الناس ، وهو موجود فى صورته المقررة منذ ملايين السنين ، وهو يفيـد البشر بصورة متسـاوية فى كل العصور . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل ان مصالحنا تقتضى ، بصورة مؤكدة الا تحاول تغيير هـذا القانون ، وأن نتعرف عليـه ونستخدمه كما هو . وتؤكد هذه الحقيقة على أن (الجمود) فى نفسه ليس عيبا ، بل هو (الحق النهائى) فيما يتعلق باكتشافاتنا حول الكون الطبيعى .

اما القوانين الأخلاقية ، فلا شك فى أن الانسان يغير معاييره

الأخلاقية من وقت لآخر . ولكن هذا الأمر ليس بكاف لاثبات أن القوانين الاخلاقية اضافية او متطورة . والسبب فى ذلك أننـا نعرف أن الانسان مخلوق حر ، وهو يقدر على الظلم والعدل معا . ولذلك لا يكفى عمل الانسان أو البشر فى زمن ما لاثبات أو بطلان معيار أخلاقى ما . ولا يمكن اعتبار عمل ما للانسان صحيحا الا اذا أثبتت الدراسة العلمية صحته .

وأريد أن أذكر القراء هنـا بأن نظريات الفلسـفة والأخلاق والعلوم الاجتماعية لم تتمتع ، بعد ، بتصديق علمي لها .

والأخلاق الجديدة ، التى انحرف اليها الانسان نابذا المعايير الأخلاقية القديمة ، لا تتمتع الا بقيمة الرواج ، ولم يتحقق ، بعد ، أن علما من هذه العلوم يقف على أسس علمية ثابتة .

وفى مقابل ذلك ، يتمتع أهل الدين بقرينة علمية ، وهى قرينة القانون الطبيعى الدائم وغير المتغير . وبناء على ذلك فان القوانين الاخلاقية السماوية أيضا دائمة وغير متغيرة ، أو على الأقل ينبغى أن تكون كذلك . هذا ، بينما يفتقد الفريق الآخر أى دليـل أو قرينة لصالح دعواه .

***

والذين يستدلون على ضرورة تغيير الأديان ، يسوقون احد ادلتهم عن طريق اللغة . فيقولون : (ان الوسيلة التى تنقل الينا الحقائق الدينية هى اللغة . وهى وسيلة ناقصة وبشرية ومتغيرة . وليس هناك من لغة تكتب وتفهم لأكثر من خمسة آلاف أو عشرة آلاف سنة . وهناك مخطوطات كثيرة فى العالم لا تعرف معانيها بعد) .. وخلاصة هذا الاستدلال أنه ما دامت وسيلة نقل الحق الينا متغيرة ، فكيف يمكن أن يكون الحق غير متغير ، لأنه بتغير اللغة ستتغير معانى الكلمات المسـتخدمة فى نقل الحق ، وبذلك سيتغير مفهومه من عصر الى آخر .

ان تغير الالسن واللغات أمر مألوف فى التاريخ اللغوى البشرى ولكن ذلك ليس بقانون ثابت عن كل لغة ، وهو لا ينطبق ، على أى

حال ، على لسان القرآن الكريم . فقد نزل القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، وتوسعت اللغة العربية خلال هذه المدة توسعا كبيرا ، ولكن اللغة العربية نفسها لم تتغير . فلغة القرآن مفهومة لدارس اللغة العربية ، اليوم ، تماما كما كانت مفهومة للعرب عند نزول الوحي . ويعني هذا أن هذا الاستدلال اللغوى لا ينسحب على القرآن أو الاسلام حتى هذا القرن العشرين على الأقل !

ولكننا لو افترضنا ، جدلا ، أن اللغة العربية قد تتغير فى زمن من الأزمنة كاللغات الأخرى ، فان الأمر لن يختلف فيما يتعلق بفهم التعاليم الاسلامية ، فالآداب القديمة لأية لغة تختلف عن آدابها الحديثة ، ومع ذلك يدرسها الدارسون ويطالعها الطلبة . وعلى سبيل المثال فان لغة شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦ م) تختلف بعض الاختلاف عن اللغة الانجليزية المتداولة الآن ، ولكن دارس الانجليزية يستطيع أن يفهمها . أما لغة أول شاعر فى الانجليزية شوسر (١٣٤٠ ــ ١٤٠٠ م) فمختلفة تماما عن اللغة المتداولة اليوم لدرجة أن دارسا عاديا للانجليزية لن يفهمها بسهولة . ولهذه المشكلة حل فى المعاجم والشروح . وهكذا لو تغيرت اللغة العربية تغيرا كبيرا (بالرغم من استحالة ذلك فى هذا العصر المختص بالصحافة ووسائل الاعلام) فان المعاجم والشروح ستحل مشكلاتنا فى فهم القرآن تماما كما تقوم معاجم اللغات الأخرى فى شرح آدابها القديمة .

لقد اشتركت ذات مرة فى ندوة للعلماء المتغربين . وقدم فيها أحد الباحثين مقالا يصف فيه قصة آدم بأنها « تفسير رمزى » ، أى أن القصة التى تذكرها سورة البقرة ليست بواقعة ، بل هى قصة تمثيلية تماما كما كان الحكماء القدامى يذكرون النصائح فى صورة قصص . وكانت العقبة أمام هذا الباحث أن قصة آدم تذكر الجنة ، وهو يؤمن بأن الجنة ستكون فى المستقبل ، فكيف وجدت فى الماضى !!

وأثار عالم آخر فى تلك الندوة سؤالا آخر للتدليل على تغير القانون الاسلامى وعدم ثباته ، ويتلخص فى أننا قد تمكنا من

صناعة طائرات تفوق سرعتها سرعة دوران الأرض (الف ميل فى الساعة) ، فان صلى بعض الناس صلاة المغرب ثم استقلوا طائرة أسرع من دوران الأرض واتجهوا من الشرق الى الغرب ، وحيث ان الطائرة ستطير بهم بسرعة تفوق سرعة دوران الأرض ، فهم قد يصلون الى حيث يريدون قبل غروب الشمس ، فهل يعنى ذلك ان هؤلاء سيعيدون صلاة المغرب ؟

ان الرد الفقهى على هذا السؤال بسيط ، وهو ان الله تعالى فرض علينا خمس صلوات فى الليل والنهار (أى عند اكتمال دورة محورية واحدة للأرض) ، ولذلك لو تغيرت أوقات الشروق والغروب بالنسبة لشخص ما ، فانه سيقسم اوقات صلواته طبقا لظروفه الخاصة . ولكن ، بغض النظر عن هذا ، فان من الغريب ان هناك اناسا يطالبون باعتبار واقعة آدم قصة تمثيلية لمجرد انها تفترض الجنة فى الماضى !! ويحدث هذا فى عصر يثبت ان الزمن اضافى وأن فروق الحال والمستقبل فى الأشياء لاتكون طبقا لحقيقة تلك الأشياء ، بل طبقا لمشاهدتنا المحدودة .

انك لو نظرت الى هاتين المشكلتين ، على حدة ، لبدا لك انهما قضيتان ، ولكنك لو دمجتهما ونظرت بعمق لوجدت أنهما يصدقان على العقائد الاسلامية تصديقا علميا كاملا ، لأن هذا التصور يزيل كل القضايا التى تنشأ بسبب تقسيم الزمن الى ماض وحال ومستقبل . وهذه هى نظرية آينشتاين عن الزمان والمكان ، والتى تعتبرهما « التسلسل الزمانى المكانى »
Time - Space Continium .

* * *

فى اجتماع ضم عددا كبيرا من المثقفين المسلمين بدلهى كان السؤال يدور حول الأسلوب الذى نعرض به الدين على غير

المسلمين . وقد طرح بعضهم فكرة تقول ان السبب فى عدم انتشار الاسلام فى شبه القارة الهندية هو ان الاسلام لم يقدم الى الأهالى بلغتهم وحسب طبيعتهم .. اى اننا لو قدمنا اليهم « طبعة هندية » للاسلام لأقبلوا عليه .. وذلك كأن نتخذ الأسماء التى يطلقونها على الآلهة وأن نؤدى الفرائض باللغة الهندية ، الخ .. وتعنى هذه الفكرة أن الاسلام لم ينتشر فى أرجاء العالم ، لأننا لم نقدمه وفقا لأوضاع البلاد المختلفة ولأننا لم نقدم طبعة جديدة تلائم القرن العشرين .

وقال أحد المتحدثين فى الاجتماع المذكور : ان المسلمين حكموا الهند ثمانية أو تسعة قرون ولكنهم فشلوا فى نشر المفهوم الصحيح للاسلام بين غير المسلمين ، وزعم هذا المتحدث ان المهاتما غاندى قد بحث ذات مرة عن شخص يعرف معانى القرآن الكريم فلم يعثر الا على رجل واحد يفهم معانى سورة الاخلاص !

وقد قلت ان العقبة التى نواجهها ليست هى أننا لم نقدم طبعة هندية أو طبعة عصرية للاسلام ، وانما هى اننا معشر المسلمين قد فقدنا الخصائص والميزات التى تجعل الناس يهتمون بأمر جماعة ما ..

اننا نرى اليوم جماعات الشباب وهى تطوف بشوارع لندن ونيويورك تهتف بشعارات هندوسية ، رغم أن كلمات هذه الشعارات غريبة عليهم كل الغربة . والمبشرون المسيحيون يستقطبون الملايين الى دينهم فى أرجاء العالم ولكن اللغة العبرية أو اللاتينية التى يتلون بها أدعيتهم لم تقف عقبة فى وجه المسيحيين الجدد . ان الحقيقة أن لكل دين مصطلحاته التى تعبر عن معتقداته وتاريخه ، ولذلك ، فان تغيير مصطلحات دين ما يعنى تغيير الهيكل والبناء الأساسى لذلك الدين .

ان الشرط الأساسى والأول لنشر الاسلام أن نتحلى بهـذا الدين فى سلوكنا وأن نصبح نماذج حية لتعاليمه . وكيف لنا أن ندعوا الآخرين للايمان به ونحن لا نطبقه فى حياتنا ، وبالتـالى نؤكد عمليا إننا لا نؤمن به فى حقيقة الأمر .

وهنـاك شرط آخر لنجاح الدعوة ، وهـو أن تكن فى قلبك الحب والنصيحة الصـادقة للذين تدعوهم وترجو هدايتهـم . ولتسمحوا لى مرارة الكلام ، فنحن لا نحب أهل ديننا أنفسـهم فكيف لنا بحب الذين ندعوهم للحق ؟

ان حالتنا الراهنة هى إننا لا نكن عواطف الرحمة والنصيحة لأحد ، ولا يوجد بيننا أحد ينصف الآخرين . ان كل جماعة منا مشغولة بالاساءة الى الأخرى . ولو كانت جماعة منا تقوم بعمل جيد فان جماعة أخرى لن تنظر الى هـذا العمل بعين التقـدير والاستحسان بل ستبادر بالبحث عن النقائص والعيوب لأنهـا تظن أن عملا جيـدا تقوم به جماعـة « إخـرى » سينتقص من مركزها وأهميتها . واليوم ، لو نقـدت أحـدا وأثبت له بـكل القرائن والأدلة أن نقدك صحيح مائة فى المائة ، فان من المستحيل أن يتقبل هذا الشخص نقدك بصدر رحب . انه سوف يستغل كل كلمات المعاجم ليثبت أنك إنت المخطىء وأنك لا تعرف سوى الشتيمة وقذف الأبرياء .

انه من العبث أن نتحدث عن الدعوة ونشر الإسلام بينما هذا هو الراسمال الذى نمتلـكه من الأخلاق . ان أمثـال هؤلاء لن ينشروا الاسلام ، ولم يحدث أن انتشر الاسلام على أيدى إمثـال هؤلاء .. ان اللغة التى تتطلبها الدعـوة هى لغة المحبـة وغاية النصح . ولا يمكن لأية لغة إخرى أن تنشر الاسلام .

امكانات لم يستخدمها العالم الاسلامي

شاعت البلدان الاسلامية ، عقب تخلصها من الاستعمار الغربى ، أن تحصل على نصيبها من النهضة الحضارية .. ولا نريد أن نناقش هنا أهمية هذه النهضة فى الاسلام ، بل نشير الى أن هناك سبيلين للدخول الى هذه النهضة ، أحدهما يكمن فى أنموذج الصين والثانى فى الأنموذج اليابانى .

أرادت الصين الدخول الى طور النهضة الجديدة ، فقررت تنفيذ كل مشروعاتها بأيدى مواطنيها . لقد استخدمت الصين الأيدى البشرية وحدها فى الأعمال التى تقوم بها — فى العالم الاسلامى — الآلات المستوردة الضخمة لاقامة الجسور والبنايات والمصانع .

لقد نفذت الصين كل هذه المشاريع بالأيدى البشرية ؛ بمعنى الكلمة . لقد استخدموا هناك مئات ، وآلاف ، بل مئات الألوف ، من العمال لتنفيذ مشروع واحد ، لقد فرضوا الحياة البسيطة على أعلى المستويات . وبدلا من استيراد أفخم الملابس والسيارات من أوربا ، أصبح شعار الصين ارتداء الملابس الوطنية الخشنة والاعتماد على المركبات المحلية . والصين دولة قوية فى عالم اليوم بعد أن أمضت عشرين سنة على هذه الحالة . انها لا تستجدى أحدا اليوم ، بل الآخرون يطلبون منها العون .

وقد قدمت اليابان الأنموذج الثانى . فقد دفعت اليابان ثمن ضعفها بأن تحطمت على أيدى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ثم واجهت قضية الدخول الى ميدان النهضة التمدنية . وكانت اليابان مضطرة للاستمرار فى علاقاتها مع أمريكا . وقد استخدمت اليابان هذا الاضطرار بأن حاولت النهوض بصناعاتها وتعليمها الى أعلى المستويات . ولم تنظر اليابان الى الدولارات الأمريكية المتدفقة عليها : انها وسيلة لشراء الترف من الخارج ، بل سخرت كل قوة البلاد لانهاض العلوم والصناعة والتكنولوجيا اليابانية .

وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة عشرين سنة في اليابان . وفي هذين العقدين من الزمن حول اليابانيون بلادهم الى يابان جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن التي دمرتها القنابل الأمريكية . وامكانات اليابان اليوم ، تتحدى أمريكا نفسها . والمراقبون الذين كانوا قد اصدروا وثيقة الموت لليابان قبل ربع قرن فقط ، يتنبأون اليوم بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن اليابان مثلما اقترن هذا القرن بأمريكا والاتحاد السوفييتي .

لقد تمكنت اليابان من تحقيق التفوق التجاري على أمريكا ، وهي لا تزال خاضعة لها . وبدأت الصحف الأمريكية تنشر مقالات تتساءل فيها : كيف نواجه الحملة اليابانية التجارية ؟!

أما العالم الاسلامي .. فقد حصل على السنوات العشرين نفسها التي حصلت عليها الصين واليابان . ولكن النهضة التمدنية في العالم الاسلامي لا تعني سوى استيراد سيارات الغرب وطائراته ، وتزيين بيوتنا بمواد مستوردة . ونحن نصر على المضي على هذا المنوال ولو أصبح اقتصادنا الوطني مرهونا لدى الأعداء .

ان الخسارة المادية ليست خسارة حقيقية في نظر الاسلام ، ويمكننا الصبر على انتقال رؤوس أموالنا الى دول أجنبية بسبب الأخطار وسوء التخطيط والحماقة ، ولكن صبرنا مقرون بشرط الا تجلب هذه الخسائر المادية خسرانا دينيا من ورائها .

لقد رضي اليهود بالمعاهدة التي عقدها الرسول الكريم ــ عقب الهجرة ــ لأنهم اطمأنوا الى أنها تضمن استمرار نظامهم الاقتصادي والاستغلالي . والمعاهدة التي ابرمها الرسول الكريم مع قريش في السنة السادسة من الهجرة في الحديبية تضمنت شرطا يقضي بحرية الكفار في أسفارهم التجارية والأنشطة الاقتصادية .. ويعني هذا أن المسلمين سلموا باستمرار الاستغلال الاقتصادي الذي كان الكفار واليهود يمارسونه .. ولكن هذه المهادنة المؤقتة لا تعني أن يسمح المسلمون لغيرهم بالاستمرار في استغلالهم الاقتصادي وان يظل المسلمون دون نصيب في عالم الاقتصاد . ان هذا الرضوخ

المؤقت لمصلحة الكفار يكون لأجل هدف أعظم وأشمل ، وهو أن يستخدم المسلمون جو الأمن والصلح الذى ينتج عن المعاهدة لنشر الاسلام واستقطاب الاتباع من بين الكفار ولتدعيم المجتمع الاسلامى .

ان الحالة التى واجهها النبى الكريم فى السنوات الأولى من الهجرة : موجودة اليوم بصورة أقسى وأعمق من ذى قبل . ان الدول التى تهيمن اقتصاديا على العالم الاسلامى محرومة من اغلى شىء فى هذا الكون ، وهو دين الحق والفطرة الذى لا يوجد سوى عند المسلمين .

وليس من واجب المسلمين نشر هذا الدين بين غير المسلمين فقط ، بل ان خصائص مدهشة تكمن فى هذا الدين لتسخير العالم ولو تمكنت جماعة ما من اظهار دين الفطرة فى العالم فهى سوف تسخر الشعوب التى تستغل العالم الاسلامى اقتصاديا . والاسلام المغلوب على أمره سيصبح غالبا حينذاك .

امكانات مدهشة :

ان التاريخ قد أتاح للعالم الاسلامى امكانا جديدا .

ان دراسة العالم المعاصر تدلنا على أن فيضان النهضة المادية قد وصل الى آخر مداه ، وانها غير قادرة على اعطاء السكينة لقلب الانسان . ان موجة من انعدام الثقة والطمأنينة النفسية تغزو كل العالم .

ان الدين ينهض اليوم من جديد فى روسيا ، بعد نصف قرن من القهر . وحركات الشباب الفوضوية فى الغرب نتاج لانعدام الطمأنينة . ويطلق شباب اليابان اسم «ثقافة التجارة» على ثقافتهم التى لا توافق سوى جزء من حاجات الوجود البشرى . ان داء « القلق » وانعدام الثقة قد غزا الجيل الجديد فى العالم كله .

ان هذه الأحوال تتيح فرصة ذهبية لحاملى دين الفطرة لارواء عطش العالم ولاظهار دين الله . انها أعظم فرصة أتيحت فى التاريخ

كله لنشر دين الله ، فنحن ، من ناحية ، تتمتع اليوم بأضخم وسائل الاعلام والاتصال ، ومن ناحية أخرى يبحث الانسان المعاصر عن دين يستجيب لجميع مقتضيات وجوده ، بعد ضياع طويل فى متاهات المادة .. كأنه يقول بلسان الحال ما قاله قس بن ساعدة قبل الاسلام : ربى لو كنت أعرف كيف أعبدك لعبدتك .

ولو أردنا أن نغزو العالم عن طريق الجامعات والمصانع الضخمة والطائرات ، فأغلب الظن أننا سنفشل فى ذلك ... والسبب فى ذلك أن الغرب فى تطور مستمر منذ أربعة قرون ، وسيكون قد دخل ما يسمى ب « العصر ما فوق الصناعى » حين نكون قد وصلنا الى ما قد وصل الغرب اليه اليوم .

ان أقرب الطرق لظهور المسلمين فى هذا العالم يمر بالدعوة وتبليغ كلمة الله . إنه الطريق الذى لن نحتاج فيه لفتح جبروت فارس والروم ، بل ان كل أدوات الجبروت ستسلم أمرها للداعى طواعية .

ان الطريق الذى كشفه الغرب هو طريق الفتح بالحديد والحجر فى آخر صوره ، ولكن طريق الاسلام هو فتح الانسان . والحديد والحجر يستسلمان تلقائيا حين يستسلم صاحبهما . اننا لن نكون فى حاجة الى فتح الأدوات المادية بعد أن نفتح قلب صاحبها الانسان .

ان قوة المسلم كامنة فى الدين الكامل الذى أرسله اليه رب الكون . ولو نهض المسلمون يدعون البشر الى دين الله لاستسلم العالم كله لهم . ليت الدول الاسلامية تتفهم هذا السر وتبحث عن مواقع النفوذ لدين الله ، بينما تبحث الدول الأخرى عن مواقع النفوذ بالدولارات ومن أجلها .

ان قافلة الأمة المسلمة المحطمة تبحث عن مستقبلها بمختلف الطرق . ولكن العجيب أنها لم تسلك بعد طريق الدعوة . ان المستقبل الذى تبحث عنه الأمة الاسلامية لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق الدعوة .

الايمان والحركة الايمانية

ما هو الايمان ؟ انه فى كلمة واحدة : اكتشاف الانســان لله .
ان واحدا من أهم الأسـئلة الازلية أمام الانســان هــو عن منبــع شخصيته ووجوده . ان الحياة الانسانية واسعة ، لدرجة أن اية موسوعة لا تكفى لمجرد فهرسة العلوم الانسانية . فهذه الأجــزاء والعناصر من حياة الانسان ، التى لا حدود لها ، هل هى وحدات متباينة ، وهل ينبغى معالجة كل وحدة منها على حدة ، كعمل المهندس الذى يضع كل ترس وجزء من الماكينة الكبيرة ، فى مكانه المخصص ، واحدا بعد الآخر ، ولو ضاع منه ترس واحد لتعطلت الآلة ، وظلت ناقصة .

فهل الانسان أيضا مثل الماكينة ؟ ولو صح هذا ، فان اصلاح الانسان سيكون مستحيلا من الناحية العملية . وذلك لأن الحياة الانســـانية تتركب من اجزاء وتروس لا حصر لهــــا ، ولن يجرؤ مصـــلح أو مفكر أن يبحث عنها كلها ، ثم يحاول وضــــع كل جزء وترس منها فى مكانه . بل ، ان مطالعة علم النفس تنفى هــذه الفـكرة عن الانســــان . ان علم النفس يدلنــــا على أن الوجود الانسانى ــ رغم سعته وشموله ــ يحتوى على وحدة أساسية ، هى من الجسم كالموتور (المحرك) من الماكينة . انك تقوم بتشغيل الماكينة كلها حين تضع يدك على المحرك ، وانك تنهى ، كذلك ، حركة الماكينة كلها ، باستخدام المحرك ، مرة أخرى .

لقد اعترف جميع العلماء والفلاســفة بهذه النوعية الخاصــة بالوجود الانسانى ، بأسلوب أو آخر ، ولكن آراءهم اختلفت حول منبع هذه الخواص واصلها .

الدراسة الموضوعية عن الانسان :

ان أهم التطورات العلمية التى وقعت فى القرون الماضية هو دراسة الأشياء من خلال هيكلها الظاهرى (الخارجى) ، والتعامل مع كل مسألة على انها مسألة موضوعية Objective ان نجــاح

هذا الأسلوب للدراسة فى بعض فروع العلم جعل بعض الناس يجربونه على الانسان نفسه . وقد حصلنا على عدة اجابات « موضوعية » ، نتيجة هذه المحاولات . وأهم هذه الاجابات فلسفتا « الجمهورية » و « الاشتراكية » . وكلتاهما تدعى حل مشكلات الانسان ومعضلاته .

ان النظرية الاولى (الجمهورية) تقول : « ان الانسان حيوان سياسي » . اى ان السياسة هي العامل الجامع بين الجوانب الشاسعة من الحياة الانسانية ، وأن السياسة هى الأصل الذى يجمع ويوفق بين كل الجوانب الاخرى . وتدعى أن كل جانب من جوانب الانسان ـ من حياته الخاصة الى الأسرة والمجتمع الصغير والكبير ـ تابع « للسياسة » مباشرة أو بصورة غير مباشرة .. وأن السياسة هي المنبع الأساسي الذى ـ بوضع اليد عليه ـ نضع يدنا على الحياة كلها ، وبفقداننا اياه نفقد معنوية الحياة كلها .

ولكن النظرية الاخرى (الاشتراكية) ترفض هذا التفسير ، وتقرر أن : « الانسان حيوان اقتصادي ! » أى أن الجامع الذى يجمع بين مختلف جوانب الحياة الانسانية ، فى مجموعة متناسقة، وهو نظام الانتاج الاقتصادى الذى يوجد فى الحياة الخارجية للانسان . وأن نظام الانتاج والتوزيع هو الذى يكون الحياة الانسانية ويعطيها صورة متميزة . ولذلك ، فان فلاح الانسانية والمؤسسات الاجتماعية أو فسادها موقوف على هذا الاساس .

ان الحديث لن يطول فحسب ، بل سيخرج عن نطاق القضية المطروحة هنا ، لو أردت تحليل كلتا النظريتين هنا .

وبالاختصار ، فان الفلسفتين اعتبرتا ، قبل قرن ، أهم كشوف التاريخ ، ولا تزالان تهيمنان على الخريطة السياسية للعالم ، لكنهما قد حرمتا اليوم من رأسمال اليقين من الناحية الايديولوجية أو القيمة النفعية .

ان الدراسة العلمية لآثار النظريتين لم تصدق دعاويهما . ان باحثى العصر يشكون بشدة فيما اذا كانت الدعاوى الرنانة التى

أطلقهـا مخترعوا النظريتين الأوائل بتتمتع بأى قـدر من الصـدق العلمى .

هذا من الناحية النظرية .

اما من الناحية العملية التطبيقية ، فان الأحوال السائدة فى كل الدول التى طبقت النظريتين لدليل فاصل فى اخفاقهما فى حل قضايا الانسان .

لقد تمتع السوفييت بفرصة ذهبية ، وتمكنوا من إخضـاع ارض شاسعة جدا لتجربة الفلسفة الاشتراكية ، بدون عوائق ، والآن ، بعد أن احتفلوا بمرور نصف قرن على هذه التجربة ، قد اتضح لجميع الناس ــ ماعدا حكام الكرملين ــ أن هذه التجربة فاشلة بصورة قطعية . ان هذه التجربة المريرة لم تحل قضـية الانسـان الروسى حتى بذلك القـدر الذى كان متوفرا فى عهـد القياصرة .

وتلك هى حالة الجمهـورية إيضـا . لقـد تمتعت تجـربة الجمهورية بفترة أكبر من الاشتراكية وبأرض اوسع منها . ولكن خلاصة التجارب هى أن الجمهورية لم تستطع ان تثبت لنا كيف يمكن اصـلاح جميع جوانب الحياة البشرية بالامسـاك بتلابيب السياسة . لقد هب الطوفان الجمهورى بقوة جارفة حتى أزاح بمعظم النظـم القديمـة ، وانجرفت فى هـذا الطوفان حتى تلك المسـتعمرات التى كانت البـلاد المخترعة لفكرة الجمهورية قـد استولت عليها فيما وراء البحار . ان دعاوى الجمهورية لم تحقق صدقها فى فرنسا حيث مسقط راس الجمهورية ، ولا فى الهنـد حيث تم استيرادها فيما بعد .

ولو درسنا النتائج فحسب ، فسيتضح أن مثال الجمهورية والاشتراكية فيما يتعلق بمجال اصـلاح الحياة هو كان تعطى ماكينة عاطلة لأحد الجهـلة ، فيزعم أن ترسـا من التروس هو السبب الحقيقى وراء تعطل الماكينة ، ثم يبدأ فى دقها من مختلف الزوايا . ان هذا الجاهل بالهندسة سـيظل يدق التروس حتى

يأتيه أجله دون ان يتمكن من اصــلاح الماكينــة أو معرفة السر الكامن وراء تعطلها .

الروحانية الجديدة :

ثم تمر أمامنا جماعة أخرى جـديدة . ان هؤلاء يزعمون انهم يدرسون الحياة كقضية غير موضوعية . انهم يقولون : ان منبع الحياة هو الروح أو الشخصية الداخلية للانسان .. وان هــذه الشخصية الداخلية هى أصل الحيــاة البشرية بالرغم من عــدم خضوعها للرؤية .. وان هذه الشخصية الداخلية هى التى تصلح الحياة كلها ، وهى التى تفسد الحياة كلها .

وهذه هي الفلســـفة التى تقبع على ظهر حركــات « الفن » و « الروحانية » Spirituaeism التى ظهرت فى العصر الحاضر .

ان دعاة هذه الفلسفة يدعون انه يمكن احياء الوجود الانسانى باكمله باحياء الروح واثارتها . فالنغمات الموسيقية تسحر الآذان، ورؤية المنظر الخلاب على مسرح الرقص تنقل الانسان الى عالم آخر .. فهذه الاشياء ترفع الانسان ، لبعض الوقت ، عن عالم العلائق المادية الى مقام وجدانى حيث الحب والاتحاد والطهــارة النفسية والقلبية ، الى حيث لا حقد ولا كراهية . وبذلك يوجد ذلك الانسان الذى يتبع أحسن الســبل فى انشــطته اليوميــة ، ولا يلتفت الى الأساليب الحقيرة الوضيعة فى معاملاته .

هذا هو الادعاء الذى تعلنه الروحانية الجديدة . ان رافعى راية الروحانية الجديدة يقولون : ان الروحانية هى ان تقطع صلة الشعور بالعالم المادى وتركزها على العالم الباطنى . إنهم يقولون ان هناك دنيا واسعة داخل الوجود الانسانى ، كالدنيا الواســعة خارج وجوده . وهذه الدنيا الداخلية هى روح الانسان . والروح بحر من نوع خاص . فلو اننا اغمضــنا أعيننا وركزنا تفكيرنا على عالمنا الداخلى فسوف نشعر بكون عظيم داخل انفسنا ، وهو كون عظيم الاتساع وغاية فى الهدوء . ان الامعان فى هذا الكون الداخلى يبعد الانسان عن ضجيج الحياة المادية ، أو على الاقــل يقلل مــن

أهمية هذه القضايا التى تحاصر حياة الانسان فى كل حين . فانك لو جعلت الناس يغطسون فى بحر الروحانية فانهم لن يلتفتوا الى ضجيج الساحل ، وان نزلوا الساحل فانهم سيكونون مبتلين بمياه المحيط الروحانى : الامر الذى سيكون ضمانا فى حد ذاته بأنهم سوف يؤدون واجباتهم على نحو أفضل من الآخرين الذين لم يتمتعوا بتلك التجربة .

اننى أتفق اتفاقا مبدئيا مع تحليل مفكرى وجهة النظر الأخيرة ــ الروحانية ــ وهو أن « أصل المجموعة الانسانية هو الروح أو العقل » . أما الحل الذى يتقدمون به فلا يعدو أن يكون كلمات عابثة ، لا أكثر . فالقضية الأساسية هى أن الشىء الذى نسميه روحا ، ليس مطلقا أو مجردا ، بل هو وجود يتمتع بالشعور .. وحيث أن الروح تتمتع بالشعور ، فيجب أن تكون الاستجابة لنداء الروح بالاسلوب الشعورى وحده . ان سحر الفنون الجميلة أو الغطس فى المحيط الروحانى يمكن ان يخلق شعورا أو كيفية مؤقتة فى نفس الانسان ولكن هذا الشعور وتلك الكيفية لن يستوعبا الوجود الانسانى كله ولذلك لا يلبثان أن يزولا . ان وجودا شعوريا لا يمكنه أن يجد سكينته فى إشكال الكيفيات المجهولة ومعمياتها . ان روح الانسان فى حاجة الى نقطة معلومة معينة تعيينا واضحا ، حتى تجعل منها مركز امانيها وأحلامها ، والتى يمكنها أن تصبح هدف مسيرة الانسان ، والتى يمكنها أن تجيب على الأسئلة لو اثيرت ، والتى تكون اكمالا لمطالب الوجود الانسانى . ان العثور على نقطة لها هذه الصفات هو عثور الروح على حياتها . وبدون تلك النقطة ستظل الروح بدون ملجأ ، تدور فى حلقة مفرغة .

وبهذا قد وصلنا الى حيث تبدأ الحركة الإيمانية .

ان الحركة الايمانية ــ باختصار ــ محاولة بالمفهوم النفسى ، لتعيين المركز فى روح الانسان . وهذه المحاولة تستند على التحليل الذى قدمه النبى العربى (صلى الله عليه وسلم) : « الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب » (١) .

---

(١) رواه مسلم فى باب المساقاة : ٥ ــ ٥٠ ، ٥١ .

ان الحركة الايمانية تركز جهدها على اصلاح هـذا العنصر الأساسى من الانسان فانك لو تمكنت من اصلاح القلب ، فكأنك قد وضعت يدك على لوحة المحولات فى مصـنع الانسـان . وان اخفقت فى وضع اليد عليه فقد فشلت فى الحصول على أى شيء رغم سيطرتك الظاهرة على كل شيء .

ان هذه النظرية تحمل اهمية مزدوجة . فالنظريات الاخرى هى لمحض « الاصلاح الانسانى » ، أى اننا اذا أردنا اصلاح الحياة فينبغى أن نأخذ بتلك النظريات كتدبير للاصلاح .

ولكن ليس هذا كل ما يعنيه الاسلام ، بل هو حقيقة فى ذاته . وبعبارة اخرى : ليست أهمية الاسلام نفعية وافادية ، بل أهميته تكمن فى كونه نظرية ايديولوجية كاملة . فنحـن لا نقبل الاسـلام لمجرد الاصـلاح ، بل لانه لا مفر من ذلك القبـول . ان الاسـلام يتعلق بحياتنا الابدية ، بالجنة والجحيم ، بغضب الخالق ورضاه يوم الحساب . ان هذه الميزة الثانية تضفى أقصى قدر من الشدة والتأثير على النظرية الايمانية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان مركز هذه الروحانية ليس خيالياً ، بل هو فى حقيقته وجود ذو شعور يتمتع بكامل القدرة ، الا وهو الله ، الذى أرسـل الينا ، بكامـل قدرته وارادته ، كتابا هاديا موثقا . ان هـذا الواقع يخرج مسـيرتنا الروحانية مـن متاهات الغموض الى عالم واقعى حقيقى . انه يضفى على كيفياتنا الغامضة ثوب القانونية والدسـتورية . اننا ندرك فى هذه المسـيرة ادراكا شعوريا كل طرق البداية والنهـاية وجميع حدودها وأبعادها . ان الاسلام هو الاسم الآخر لهذه المسيرة الروحانية . فالاسـلام لا يكتفى بتعيين الهـدف النهائى ، بل يتقـدم لتوضـيح العـلاقة الصحيحة بين الوجود الروحانى للانسان وبين بقية علاقاته . فكما أن دستور بلد ما يكون أحسن تعبير عن امانى شعبه أو حكومته ، فكذلك يعين الاسلام مطالب الانسان الفطرية فى صورة القانون . ان الاسلام حكم الله من ناحية ، وهو صوت الفطرة من ناحية أخرى .

ان الحركة الايمانية تركز نشاطها على ابانة هذه الحقيقة الأساسية . انها توقظ الفطرات النائمة ، تربط روح الانسان بربه ، تحرك ذلك المحرك المركزى الذى تتحرك بتحركه جميع الآلات فى مواضعها المحددة . انها تخلق فى الانسان الشعور بالحق، والاحساس بالهدف ، وتضيء فى قلبه ضوء المعرفة ، انها توقظ فى الانسان ذلك المحرك العظيم الذى يدفع الانسان بشدة نحو محاولة تكميل ذاته ، حتى يصبح هو نفسه حارس ذاته . وحتى يسيطر عليه الهم لاصلاح نفسه اصلاحا جذريا .

وحيث أن هذه الرسالة هامة جدا الى أقصى درجات الأهمية، فيظهر السؤال الهام : ما علاقة هذه الحقيقة الأساسية بالعلائق والمطالب الأخرى للحياة . ان البحث عن هذه العلاقة أمر فى غاية الأهمية ، لأسباب عديدة .. فنحن نريد أن يكون أمامنا التحليل والتفسير العلمى للانسانية كلها ، لكى نحدد اسلوب معالجتنا لشئون دنيوية كثيرة ، ولكى لا نقع فى اخطاء الحذف والاضافة والافراط والتفريط ، ولكى يتمتع الدين – ككل جامع – بدلالة واضحة فى أذهاننا .. الخ .

فعلى سبيل المثال ، لقد ظهرت أفكار ونظريات كثيرة فى العصور الأخيرة ، تتحدى صلاحية الاسلام ، باسم العلم والفلسفة الجديدة . انها تدعى أن تصورات الله والدين محض خديعة ، ولا حقيقة وراءها . ان هذا التحدى ليس بصراخ المجنون ، بل يوجد على ظهره فكر خطير اثر فى الفكر المعاصر تأثيرا جعل جميع العلوم الحديثة تتأثر به بدرجات متفاوتة .

فما العمل الآن ؟ هل نستمر فى عملنا الأساسى ؟ هل وقائع العالم الخارجى لا تقيم فى وجهنا مشكلات تجعلنا نفكر فى أسلوب مواجهتها . واذا كنا فى حاجة الى ذلك ، فأين مكانه فى هذا الفكر الآنف الذكر ؟

ان الواجب العام والدائم على عاتق المؤمنين هو احياء الحقيقة الأساسية فى هيكل الدين . ولكن مع هذا ، فان الأحوال والظروف تخلق دائما فى كل العصور بعض المشكلات التى لابد من مواجهتها .

ويجب حينئذ القيام بواجب المواجهة ، فى اكمل صور الأداء ، رغم انه ذو قيمة وقتية .

وهناك سؤال آخر ، وهو : ما الرابط بين مقتضيات الدين بالنسبة للفرد ، وبين مقتضيات الدين بالنسبة الى الجماعة ؟ وبكلمة اخرى كيف تأتى الثورة الاجتماعية الى حيز الوجود . هل جهودنا لاحياء الحقيقة الاساسية تكفى سببا لتفجر هذه الثورة ؟ أم انه يجب تخطيط برنامج آخر لاجلها ؟

ان ردى على هذا السؤال ، باختصار ، هو أن الثورة فى حقيقتها اسم آخر لحسن استغلال امكان ما بنجاح . اننا نستحق نصرة الله بسبب كفاحنا العام لاجل الدين . ونصرة الله هى التى تفتح لنا السبل داخل أحلك الأحوال القاسية ، وباستغلال هذه السبل ينتهى أهل الايمان الى الهدف : الثورة الاجتماعية المطلوبة. أى أننا لسنا فى حاجة الى تخطيط برنامج على حدة لتفجير هذه الثورة بل هى منحة من الله وتكليل لجهودنا فى سبيل الدين .

وهناك اسئلة اخرى كثيرة تستحق منا التأمل والدراسة ، ومحاولة توفير اجابة نظرية لها .

والآن أقول بعض الكلمات عن إسلوب عملنا :

ان هذه الحركة الايمانية تعمل بين الجماهير عن طريق منهجين :

أولا : المخاطبة بالأسلوب النفسى بدلا من الاساليب العلمية والمنطقية .

ثانيا : الاهتمام باللسان ، دون القلم ، فى نشرها . فما المراد من المخاطبة بالاسلوب النفسى ، ولنفهم ذلك من مثال .. يقوم احد الدعاة ، وبهذه الكلمات يخاطب الجمهور :

« أيها الاخوة ! ان كل ما أريد ان أقوله لكم فى كلمة واحدة هو انكم أمل الله وانكم سوف تحققون امل الله ! » .

« ان ثمرة المانجو عندما تتدلى من غصن شجرتها ، فانها تكون أمل الله فى اسعاد العالم بالطعم الحلو ، والوردة تأتى الى العالم

بأمل الله فى أن يستمتع النـاس برائحتهـا الجميـلة . ان الطائر الجميل يكون أمل الله فى أن يبعث السرور لدى سامعى زقزقته . وهكذا ، أنتم أيضا أمل الله . لقد عقد حالقكم بكم الأمل : وهو أن تصبحوا مندوبى دينه ، تنشرونه فى كل ركن من أركان المعمورة ، حتى لا يحرم أحد من الهداية ! » .

والظاهر أنه لاشىء فى هذا الخطاب مما يمكن أن ينطبق عليه وصف الاستدلال العلمي . ولكن المتحدث عندما يسكب هـذه الكلمات من إعماق قلبه فانه يجعـل قلوب سامعيه تضـطرب . ولاشك فى أن للاستدلال العلمي والاثبات المنطقى وزنهما ولكن الـكلمات النفسـية التى تهـز كيان الانسـان تصـل الى حيث لا يصل العلم والمنطق . انها تقلب القلوب وتسخر الشخصيات ، وتغير الوجود الانسانى كله .

نحو بعث اسلامی

المسلمون مغلوبون على أمرهم ، فى كل مكان ، وهم ضحايا الاستغلال فى كل بلد .

ما الذى انتهى بالمسلمين الى هذه الحالة المؤلمة ؟ وهم الذين يملكون ألمع ماض حضارى ، ويشكلون الآن ثانى أغلبية دينية فى العالم .

ان ألسنتنا مشغولة بتوجيه التهم الى الآخرين .

فالمسلمون الهنود يلعنون الاغلبية الهندوسية ، والعالم العربى يكيل اللعنات لليهود ، والمسلمون الافارقة يوجهون التهم الى المسيحيين .

ولكن السؤال الملح هنا : لم حدث هذا ؟ لقد حكم المسلمون العالم أكثر من الف سنة ، فكيف وصل بهم الأمر الى هذا الهوان الذى يعيشونه فى عالم اليوم ؟ ان الحقيقة الكبرى فى كارثتنا هى أن ضعف المسلمين هو المسئول عن فشلهم وسقوطهم .

ان هذا العالم عالم صراع ومواجهة ، ولا معنى للتباكى على الفشل ، حيث يوجد الصراع والمواجهة . فالفشل هنا هو النتيجة الحتمية لمن يثبت ضعفه فى الصراع ، ففى بداية النبوة أصبح العرب والعجم أعداء الدعوة الجديدة ، ولكن الاسلام لم يكن ليسقط لمجرد عداوة هؤلاء .

ان استمرارنا فى العويل والبكاء يعنى اننا بصدد تضييع الفرصة الأخيرة ـ أيضا ـ التى منحتنا اياها طبيعة العصر الحديث . ان توجيهنا الاتهامات للآخرين يكشف عن أننا لسنا نواجه الفشل فحسب ، ولكننا نواجه الحماقة وقلة الحكمة فى نفس الوقت .

لن يبدل شيئا من بؤسنا وقدرنا الا شىء واحد ، وهو أن نعمل لتقوية أنفسنا . فنحن ضعفاء ، بحق ، أمام الآخرين ، ولذلك نحن مغلوبون .

كيف نصبح أقوياء ؟ ان القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

ان القوة هى القوة المرهبة . والأمر الالهى يشمل كل سلاح يتصف بصفة « الارهاب » وطريقنا كما تحدده هذه الآية الكريمة ، أن نحصل على القوة للرهبة ، تلك التى يستعيد بها الاسلام مجده وشوكته فى هذا العصر .

ان العصر الجديد هو عصر التغيرات . لقد تغير كل شىء فى عالم اليوم ، حتى مفهوم القوة نفسه قد تغير فلم تعد الخيول والسيوف والرماح رمز القوة ، بل انتقلت قوة الخيل الى ما يسمونه بقوة « الحصان » . لقد أصبح العلم والتكنولوجيا رمزى القوة والتقدم . وفى الماضى كان رجل واحد يحكم أما الآن فالأمر قد تغير ، وتوجد أنماط مختلفة للحكم ، تلعب قوى متعددة دورا هاما فى توجيهها . وقد كانت الحكومة أكبر قوة فيما مضى ، أما الآن فالصناعة والاقتصاد والتجارة هما أكبر قوة فى ضوء المقاييس العالمية .

لقد جاء العصر الحديث بقوى جديدة يمكنها أن تعين شعبا ما ، أو طائفة معينة على التحكم ، من هذه القوى الضاغطة قوة « الصحافة » التى تمثل قوة عظيمة لم يكن لها وجود ، البتة ، فى العصور الماضية .

ان نكستنا الراهنة ترجع الى تجاهلنا التغيرات التى طرأت على العصر ، والى عدم امتلاكنا القوى الجديدة التى تمخضت عن هذه التغيرات وعلى سبيل المثال ، فان جميع حركات النهضة التى قامت على امتداد العالم الاسلامى ، خلال المائة سنة الماضية لم تهدف الا الى هدف واحد ــ هو انهاء السيطرة الاستعمارية الغربية ، والحصول على الاستقلال . وقد أنفقنا فى سبيل هذه الغاية ما لا يحصى من الوقت والمال والتضحيات . ولقد توصلنا ، تقريبا ، الى هذا الهدف اليوم ولكن هل يتمتع المسلمون اليوم بنفس المكانة التى تمناها مجاهدو الحرية فى أحلامهم بالأمس ؟ ولا جواب لهذا السؤال الا بالنفى المطلق .

لقد أزاح مسلمو الهنـد « نير » الاسـتعمار الانجليزى ، بعد تضحيات منقطعة النظير ، واذا بهم محكومون من جانب الاغلبية ، فى ظل النظام الجمهورى الحر . وفى كثير من البلدان الافريقية دفع المسلمون ثمن الحرية من دمائهم الساخنة ، ولـكن غير المسلمين بتفوقهم العلمى والاقتصـادى يحكمونهم اليـوم وفى صـخب شديد ملأ العالم أعلنت بعض البلدان العربية تخلصها من الاستعمار نهائيا ، ولكن سرعان ما وقعت هذه البلدان فريسة استعمار من نوع جديد .

وخلاصة ما أريد أن أقوله هو أن واقع الدول الاسلامية لم يتغير ، رغم كل التغيرات ، فنحن رغم انتزاعنا الحرية لم نتمتع بها فى حقيقة الامر ، والغرب ـ شرقية وغربية ـ لا يزال يحتوى دولنا الاسلامية ، بفضل علمه وصناعته المتفوقة ، وهو يفعل ما يريد ، لدرجة ابقاء حكوماتها أو تغييرها ، ان اقتضت مخططاته ذلك .

وهنـا نأتى بمثال من معسكر غير معسـكرنا ، يكشـف خطأ برامجنا .

لقد تحطمت اليابان تحطما كاملا فى الحرب العالمية الثـانية ، ودكت قنابل الحلفاء معالم ناجازاكى وهيروشيما وطوكيو والمدن اليابانية الأخرى ، ثم احتلت الجيوش الأمريـكية أرض اليـابان ، وهى لا تزال تحتل جزيرة أوكيناوا ، ولا تزال أمريكا هى المسئولة الأساسية عن الدفاع عن اليابان ، بناء على المعاهدة التى أبرمت بين الدولتين بعد الحرب .

وبدات اليابان حياة جديدة بعد الحرب . ولقـد كان المزاج الشرقى العادى يقتضى اثارة حملة سياسية ضد الوجود الأمريكى، لأن السياسيين عندنا يقولون : « جلاء الأجنبى المتستعمر بداية لكل خير وطنى» . ولكن اليابان اختارت طريقا آخر : لقد تجاهلت وجود الاحتلال الأمريكى وركزت كل جهدها على بناء الوطن من جـديد وزادت من أهمية التعليم حتى أعطت المدرسين مرتبات الوزراء ، ومنحتهم صلاحيات وكلاء النيابة ، وكانت النتيجة أن أصـبحت اليابان ، فى عقدين اثنين من الزمن ، بلدا من أكثر البلاد تقدما فى

التعليم . واليابان لا توجد فيها مناجم الحديد ، ولكن الشعب الذى قد تعلم لم يعد يضيع قطعة واحدة من حديد شفرة حلاقة أو مسمار مكسور . فكل قطعة حديد تأخذ طريقها نحو المصنع لكى تظهر فى صورة جديدة نافعة . وسار البناء قدما بطريقة منظمة حتى أصبحت المدن المحطمة من أكبر مراكز الصناعة والتجارة فى العالم ، وتقدمت الصناعة والعلم والتكنولوجيا حتى أصبحت منتجات اليابان تنافس المصنوعات الامريكية فى أسواق التجارة الحرة .

واستغلت اليابان نكبة الاحتلال الامريكى أحسن استغلال كمظلة دفاعية ووجهت كل امكاناتها نحو تعمير الوطن ، وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان خلال ربع قرن من أكثر بلدان العالم علما وتقدما وقوة فى الاقتصاد . وبعد أن تم لها كل هذا بدأت الحوار مع أمريكا . فكانت المطالبة اليابانية تقريرا لحق سبق فيه الحكم لصالح اليابان ، لأنها استخدمت فى ذلك كل قوة وامكانية أتاحها الزمن والعصر لها ففوجىء العالم فى أكتوبر الماضى بوزير خارجية اليابان يزور « أوكيناوا » ، لأول مرة ، ويعلن أن : « القوات الامريكية ستجلو قريبا عن أرض اليابان » (١) .

ان النموذج اليابانى يؤكد معرفة رجالها معرفة كاملة بروح العصر الجديد بينما نموذجنا يخلو تماما من تلك المعرفة بروح العصر . وهذا هو السر فى أننا لم نحتل مكاننا المناسب على خريطة العالم . لقد أحرزت اليابان فى ربع قرن من الجهاد الذاتى المكانة التى تجهد انفسنا منذ ما يزيد على قرن فى سبيلها دون الوصول الى نتائج .

ان نموذج اليابان وظروفها مماثلة لكل الدول التى توجد فيها أغلبية المسلمين فبينما تمكن اليابانيون من النهوض والوقوف فوق أرض صلبة بتسخيرهم لكل امكاناتهم المتاحة لهم ذاتيا .. ظللنا نحن عجزة متوكئين على عصا غيرنا ، ولم تزد بطولتنا

---

(١) كتب هذا الاقتراح قبل توزيع اتفاقية أوكيناوا التى نصت على انهاء الاحتلال الامريكى للجزيرة وعودتها لليابان (الأهرام فى ١٩٧١/٦/٢٥)

عن أننا أصبحنا مجتمعا استهلاكيا لكن ما ينتجه الغرب من آلات وأفكار .

والآن نسوق نموذج اليهود ليكون عبرة للمسلمين الذين يعيشون كأقليات فى الدول غير الاسلامية .

ان اليهود يشكلون ثلاثة فى المائة ـ فقط ـ من تعداد المائتى مليون نسمة فى الولايات المتحدة الامريكية . ومن الواضح أنهم بهذه النسبة المئوية لا يستطيعون أن يقيموا لهم حكومة فى أمريكا . وهم لذلك لم يشكلوا أية أحزاب سياسية ـ ولكن نفوذهم وتأثيرهم يمسك بعقل أمريكا مثل الكماشة . ولا مبالغة ان قلنا أنه لا توجد أية جوانب فى الحياة الامريكية خارجة عن نفوذ ـ كلى أو جزئى ـ لليهود .

ويكمن السبب فى نجاح اليهود أنهم قد اكتشفوا سرا هاما ، وهو أن العصر الجديد قد أتاح لانسان العصر امكانات عديدة تؤثر على جميع جوانب الحياة برغم أنها امكانات غير سياسية . ولم يكن فى استطاعة اليهود السيطرة على الحكومة الامريكية عن طريق السياسة والانتخابات العامة ، ولكن الميدان الآخر الذى أتاحه العصر الحديث كان مفتوحا أمامهم وعن طريقه وحده نجحوا فى الحصول على ما لا يمكن أن يحصل عليه الا حزب سياسى يقدر له أن يسيطر على الحكم .

لقد برع اليهود فى التجارة حتى أحكموا اقتصادهم وسيطروا على الصحافة لدرجة ملكيتهم لوكالات صحفية بأكملها ولصحف ومؤسسات نشر كبرى ، وهذا على الرغم من سيطرتهم على التليفزيون الامريكى نفسه . وقد اهتموا ـ كذلك ـ أيما اهتمام بتنشئة الاجيال اليهودية الجديدة فى كل مجالات التخصص العصرى لدرجة أن الامريكى حين يبحث عن أحسن مدير وأحسن مهندس وأحسن اخصائى وأحسن أستاذ وأحسن عالم وأحسن محام فانه لا يجد أمامه الا واحدا من اليهود .

وهكذا سيطر اليهود بكفاءتهم وجهدهم المثابر فى جميع مجالات الحياة على جميع وجوه النشاط والتأثير ..

ان اليهود الذين لا يتعدون نسبة ثلاثة فى المائة من سكان أمريكا يملكون ثلاثين فى المائة من الاقتصاد الامريكى ، بل يملكون بعض الاشياء بنسبة مائة فى المائة ، وهم يحاولون جهدهم أن يكثروا من تعدادهم ، حتى أنهم ينجحون فى جذب نحو ثلاثة آلاف أمريكى الى دينهم كل سنة .. بسبب التبشير الذى يعتبر ظاهرة جديدة ــ فى ذاته ــ عند اليهود الذين عرفوا ، على مدار التاريخ ، بالانغلاق على أنفسهم .

لقد تخلف المسلمون فى كل مكان لانهم أخطأوا فى تفهم طبيعة العصر ، ولم يهيئوا أنفسهم مطلقا لما تتطلبه روح العصر الجديدة هذه من انفساح .. ومنذ قرن كامل وثمة ضجة تثار فى أرجاء العالم الاسلامى حول ما يسمونه احياء الاسلام ، لكن الصخب الشديد قد انتهى بنا الى حيث نحن الآن ملقون فى غار الذل والعار ، ومما يزيد من عمق تعاستنا أن كل هذا الفشل لم يؤد الى خلق شعور لدى المسلمين واعادة الفكر فيما يجب عمله وفى الاسلوب الذى يجب اتباعه . وكل الشعارات والنعارات التى ثبت فشلها النهائى ــ بحكم شهادة التاريخ ــ لازلنا نسمعها من حين لآخر فى كلمة جديدة أو ثوب جديد .

وفى الهند (على سبيل المثال) لا يعرف الزعماء السطحيون الا السعى لاحياء ما يسمى « بالسياسة الاسلامية » تلك التى أخفقت من قبل فى صورة « الرابطة الاسلامية » وبرغم أن اللعب بمثل هذه الشعارات (فى مثل عصرنا) لا يعدو أن يكون نوعا من الانتحار الأحمق .

وفى البلاد الاسلامية المستقلة توجد آلاف الأعمال التى يعتبر النهوض بها هو الرقى بالشعب والارتفاع الى مستوى القوة العصرية المطلوبة ، ولكن حال هذه الأعمال يرثى له فان جيوش هذه البلاد مشغولة بفتح بلدانها هى ، وما يمضى يوم الا ونسمع فى هذه البلاد عن محاولة جرت من جانب الجيش للاستيلاء على السلطة وتنتهى المحاولة « سلبا أو ايجابا » باراقة دماء مئات من الشخصيات التى كان يجب ادخارها لتعمير الأمة وبناء الوطن . وهناك امكانات مدهشة لنشر الدعوة الاسلامية وتوسيع رقعة العالم الاسلامى ، وباستغلال هذه الامكانات ، الجديدة من نوعها فى التاريخ يمكننا

دفع عجلة الاسلام الى الأمام فى نجاح لا يمكن تخيل ابعاده الآن ، لكن هذا الميدان الحساس للعمل الاسلامى لا يزال غير مطروق على الاطلاق .

وهذه الامكانات التى سلف ذكرها تقتضى احياء كفاح جديد فى عالم الاسلام لنعطى لأجيالنا الجديدة الشعور الحقيقى بمعنى وجودهم : من هم ؟ وفى أى عصر يعيشون ؟ وماذا يجب أن يفعلوا حتى يحتلوا مكانتهم اللائقة بهم فى عالم اليوم ؟

ان أهم سؤال يجب أن نطرحه فيما يتعلق ببدء هذا الكفاح هو : فى أى مكان نبدأ بهذا العمل . ولو تمكنا من تحديد المكان الأنسب لهذا العمل فاننا نستطيع الحصول على أروع النتائج فى مدة قليلة ، وعلى عكس ذلك لو بدأ هذا العمل فى مكان غير مناسب فلا جدوى منه ولو بعد مضى مائة عام .

عندما بدأت اليابان احياء مجدها توجهت الى المدرسين فى المدن وأعطتهم مرتبات الوزراء وصلاحيات وكلاء النيابة ، وعندما ارادت الأقلية اليهودية خلق مكان لها فى الولايات المتحدة الامريكية فتحت مراكز التوعية للاطفال اليهود التى علمتهم كيف يتلافون نقصهم العددى عن طريق المثابرة والامتياز فى العلم والعمل . ولكن حينما أصابنا داء الانحطاط فى القرون الماضية بدأنا كفاحنا باثارة العويل السياسى ضد الملوك والمستعمرين الأجانب . والنتائج تقول لنا أن ما جنيناه فى قرن كامل لا يساوى شيئا بالنسبة لما جناه اليابانيون فى ربع قرن .

والآن يقف اليابانيون واليهود الذين كانوا ضحايا الأمس موقف المتحدى لقوى العصر ، وليس ثمة من يمكنه منعهم من هذا التحدى .

اننا لن نكرر الآن خطأ الماضى بأن نبدأ فى بناء المنزل من أدواره العليا ، لأننا لن نجنى من وراء ذلك البناء ، القائم بدون أساس ، الا ضياع الجهد والوقت .

اننا هذه المرة سنبدأ فى بناء الأساس قبل كل شىء لأن هذه البداية التعمـيرية هى وحدها التى تنتهى بتشـييد منزل منيـع حصين .

* * *

وفى حالتنا الراهنة نرى إنه ينبغى بدء احياء الاسلام فى أحسن صوره العملية بأن نقيم مركزا اسلاميا على نطاق عظيم . ويكون هذا المركز الاسلامى مجهزا بجميع الوسائل العصرية لنشر الافكار حتى يصبح هذا المركز مصدر الطاقة المفجرة للدعوة الاسلامية العالمية بحيث يكون هذا المركز اسـلاميا وعالميا وعصريا فى نفس الوقت .

وسوف يقام هذا المركز بحيث يسوده جو اسلامى خالص ، وهذا يعنى أن يضم مسجدا ومكاتب وغرفا للباحثين .

ونوجز فيما يلى الأعمال التى سيعنى بها المركز :

١ ـ اصدار مجلات عربية وأردية وهندية وانجليزية ، وغيرها وهى مجلات لن تعنى بالأخبار ، وانما ستكون مجلات الفكر التى ستربط جهودنا المختلفة لتعريف أجيالنا بروح العصر ومتطلباته حتى نستطيع عن طريقها نشر الوعى للقيام بعمل جاد لبناء الأمة . وهذه المجلات المقترحة يمكن رؤية مثال لها فى مجلتنا « الجمعية الأسبوعية » .

٢ ـ نشر الكتب الاسلامية الأساسية الى اللغات الأجنبية .

وعلى سبيل المثال فاننا نريد نشر طبعة للقرآن الكريم تجمع بين الترجمة والتفسير ، حتى يتمكن الرجل العادى من استيعابه بيسر وتسلسل . ونريد نشر هـذه الطبعة الميسرة فى كل لغات العالم مثل طبعات الانجيل المنتشرة فى كل مكان بثمن رمزى .

وكذلك نريد نشر ترجمة للأحاديث النبوية على هـذا النحو ونريد أيضا نشر كتاب فى السيرة النبوية ، يكون بمثابة كتاب هاد للمثقف العادى ، خصوصا من غير المسلمين .

٣ ـ نشر كتب تتناول قضايا العصر من وجهة النظر الاسلامية وتعالج مبادىء الاسلام بعقلية غير مبهورة بالغرب .

وهذا النوع من الكتب يمكن رؤية نموذج له في كتابنا « الاسلام يتحدى » . ومن الواجب أن نتوسع فى تقديم اعمال من هذا الطراز على أوسع نطاق وفى كل لغات العالم .

٤ ـ اعداد جيل اسلامى مثقف وعلى علم بكل اللغات القديمة والحديثة وبالحضارات والأديان ، وتدريبه على البحث حتى يمكنه نشر الدعوة الاسلامية فى مختلف البيئات ، وفى امكانه فى هذه الأثناء الحصول على درجات جامعية عليا فى مختلف فروع المعرفة .

٥ ـ وسيضم المركز لذلك غرفا للباحثين والطلبه المسلمين الذين يتمتعون بقدر من الامتياز والذين يختارهم المركز لتنشئتهم نشأة اسلامية صحيحة .

٦ ـ تبادل زيارات المفكرين والكتاب الاسلاميين بين مختلف البلدان لا سيما بين بلدان العالم الاسلامى لتهيئة مناخ إسلامى عالمى يساعد على تنشيط العقول الاسلامية الهامدة .

٧ ـ ستنشأ داخل هذا المركز بيئة اسلامية تكون فرصة لغير المسلمين كى يشاهدوا الحياة الاسلامية فى صورتها الحبة الطبيعية .

٨ ـ سيعد فى هذا المركز معرض يضم لوحات ورسومات عن التاريخ والحضارة الاسلامية فى مختلف المراحل .. وكذلك سيضم المعرض آثارا اسلامية ، ويكون من شأن هذا المعرض اعداد وعرض أفلام عن الاسلام .

٩ ـ ينهج المركز نهجا يؤدى الى توعية المسلمين وايقاظهم من سباتهم المميت ، تمهيدا لانطلاقهم فى ميدان التعليم والاقتصاد اللذين يعتبران بحق مفتاح العصر الحديث .

وسيكون من شأن هذا القسم انشاء صندوق لتعليم المتازين من الطلاب المسلمين ، وكذلك انشاء وكالة أنباء اسلامية دولية يكون عملها ربط جهود المسلمين عبر القارات ، وارشادهم فى

نواحي الاقتصاد بصفة خاصة ، ولاثارة مشـــاكلهم وقضاياهم وأخبارهم بصفة دائمة .

١٠ ـ انشاء مكتبة وقاعة درس ومحاضرات داخل المركز ، ويكون من شأن هذا القسم التسهيل على طالبى البحث ، والامداد بالمعلومات عن الشئون الاسلامية ، ودعوة مفكرى العالم الاسلامى وغيرهم لالقاء المحاضرات والندوات الثقافية .

* * *

انه لمن الواضح أن اقتراح « المركز الاسلامى الدولى » سيبدو للـكثيرين حلما وخيالا لأنه لا يمكن انشـــاؤه على النحو المطلوب الا بوسائل اقتصادية ضخمة ، ونحن نعلم جيـــدا مدى اهتمام أمتنا بالمشروعات الاسلامية الجادة .

ولكن على الرغم من كل الظلام الحالك فان هناك بصيص نور ، هو أننى مقتنع من الوجهتين الشرعية والعقلية بأنه لا شىء يجدى لاحياء الاسلام ـ فى الظروف المتاحة الآن ـ ولاعطاء المسلمين دورهم المناسب ـ الا بدء مشروع فكرى من هذا النوع .

وانى لا اشك فى أن عناية الله تعالى تستطيع أن تفتح قلوب بعض المسلمين حتى تتاح الفرصة والوســائل اللازمة لبدء هــذا العمل الهام الذى لا بد منه . وما ذلك على الله بعزيز .

لقد أتاح الله وسائل عظيمة للدول الاسلامية التى تمثل جزءا هاما من جغرافية العالم وتمتلك قدرا عظيما من الطاقة البشرية ، وتجود أراضيها بالذهب السيال ، وهى مع كل ذلك وارثة تاريخ وحضــــارة مجيدين يقومان على الدوام باعطاء الحرارة لأجيالها الجديدة ، ولكنها أصبحت اليوم بدون مكانة على خريطة الأرض لأن الامكانات التى أتيحت لها لم تستغل كما يجب حتى يجعل منها واقعا يفرض وجوده .

فالمسلمون فى مؤخرة شعوب العالم فى التعليم والاقتصاد ، وحالتهم فى الصحافة يرثى لها لأنهم مضطرون لاستقاء الأنباء من نفس الوكالة الصحفية التى يديرها أعداؤهم . وأسواقهم تغمرها سلع أنتجتها مصانع الأعداء ، وتحكم الأعداء فيهم قوى جـــدا

لدرجة انهم لو امتنعوا عن اعطائنا الأسـلحة لتحولت الجيوش المسلمة الى جيوش بلا سلاح ، ذلك أن دولنا الاسلامية تستهلك الأسلحة ولكنها لا تنتجها . والمسلمون دينهم دين التبليغ والدعوة ، ولكن الأديان الأخرى وحدها هى التى تهيىء لمبشريها الطائرات حتى ينشروها بسرعة العصر ، ومجرد التفكير فى أن يمتلك دعاة الاسلام الطائرات نوع من الخرافة .

والعجيب أن الآخرين يرتادون القمر ، بينما نحن لم نجهز لنا مكانا مناسبا على الأرض بعد ..

كان الحاكم الانجليزى للهند « اللورد كيرزون » سكرتيرا عاما لعصبة الأمم فى يوم من الأيام . وكان « عصمت اينونو » يمثل تركيا لدى عصبة الأمم حينئذ . وذات مرة ذهب اينونو لمقابلة اللورد كيرزون . وترك اللورد المندوب التركى ينتظر فى استراحة مكتبه دون أن يستقبله لمدة خمس عشرة دقيقة ، وعند اللقاء مد اللورد يده ليصافح عصمت اينونو الذى رفض أن يصافحه ، ولم يجلس على الكرسى الذى أشار اليه اللورد بالجلوس عليه ، وانما قال للاستعمارى الانجليزى :

« عنـدما كان أجدادك يتخذون من قشر الأشـجار وجلود الحيوانات لباسا لهم ، كان أجـدادى يؤلفون كتبا فى الفلسـفة والعلم » !

حقا ، ما انصع ما نملكه من تاريخ وحضارة وتراث عريق . وهـذا التراث ينادينا اليوم . ولو استطعنا أن نستجيب لندائه لأصبح حالنا اليوم مثل ماضينا المضىء .

والتاريخ مستعد لاعادة صـفحاته ـ بشرط واحد وهو أن نكون مستعدين اليوم لاعادة ما سجله تاريخنا المجيد بالأمس ..

والله الهادى الى سواء السبيل ..

مطابع المختار الاسلامى
دار السـلام

مرة أخرى نلتقى مع مفكرنا الاسلامى الكبير الأستاذ وحيد الدين خان على صفحات كتابه الجديد « الاسلام والعصر الحديث » .

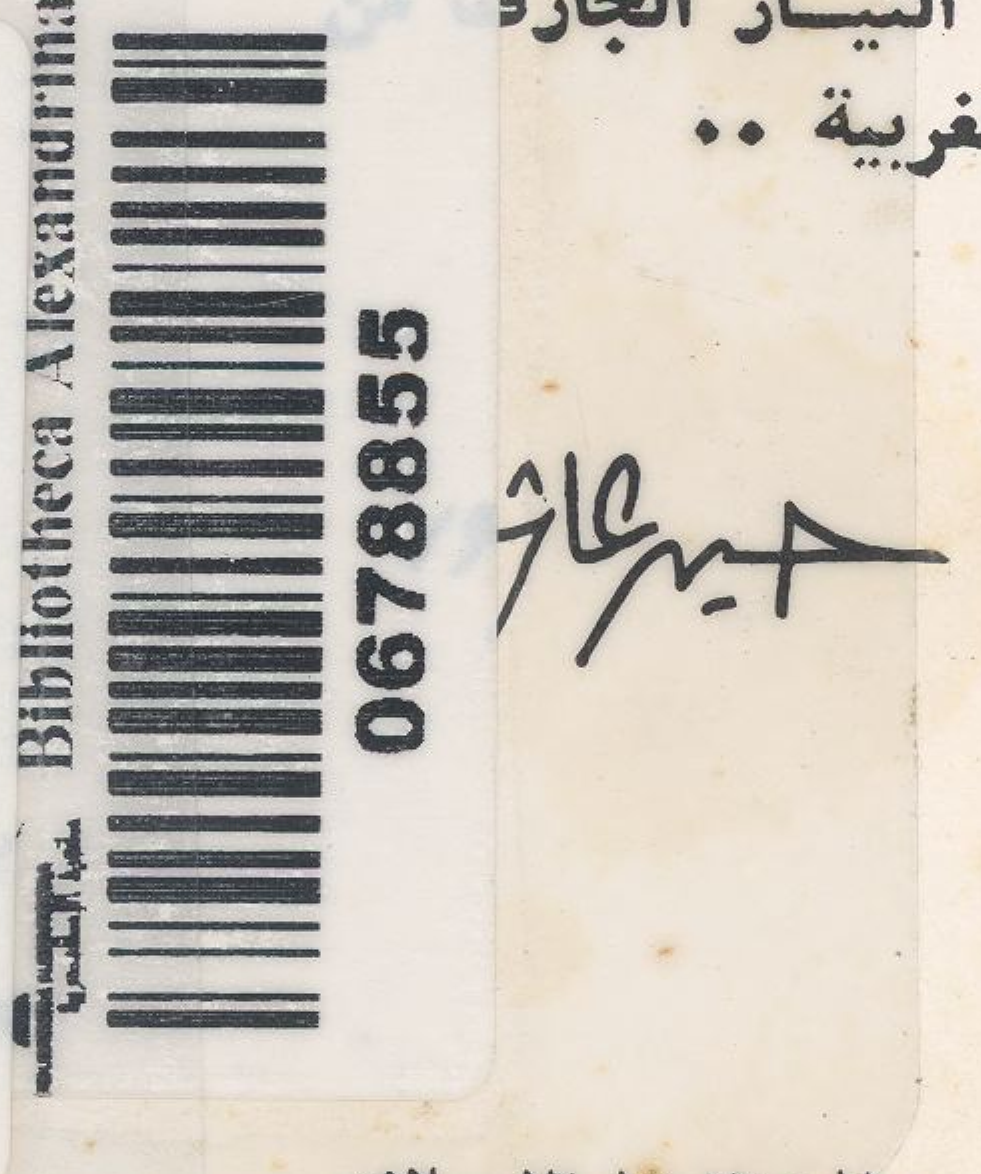
الكتاب يحدثنا عن المشكلات التى يواجهها الاسلام والمسلمون على المستوى الفكرى الحديث .

كما يحدثنا عن ايجاد ثورة فكرية اسلامية توقظ العقول الاسلامية الهامدة الراقدة من ناحية ، وتخلق جوا عالميا من ناحية أخرى لتقبل فكرة حكومة اسلامية فى المجتمع الدولى ..

ويؤكد الكتاب بأن هناك تعقيدات فى كل الأمور لا يمكن حلها بالعمل المتحمس فقط بل بالتخطيط والعمل المتواصل ..

ويشير الكتاب الى أن الاسلام لا يواجه أعداء من الخارج فحسب بل هناك جيش من الطابور الخامس داخل صفوفنا يهدم أسسنا الدينية والفكرية والحضارية والأخلاقية بمعاول هدم استعارها من مستعمرى الغرب ومستشرقيه .. ان هؤلاء المتغربين أو المتفرنجين يصرون على تحديث الاسلام وتغييره فى ضوء مفاهيمهم ومناهجهم المستوردة ..

ويتصدى المفكر الهندى الكبير لهذا التيار الجارف من الأباطيل التى يسمونها العلوم الاجتماعية الغربية ..





مطابع المختار الاسلامى